



إبراهيم عبد العزيز

مذكرات
عبد الرحمن

الأبنودي

(في طفولته وصباه)

I B R A H I M A B D E L A Z I Z
A B D U L L R A H M A N A L A B N O U D I D I A R I S



إبراهيم عبد العزيز

مذكرات عبد الرحمن الأبنودي

في طفولته وصباه

مذكرات عبد الرحمن الأبنودي

في طفولته وصباه

إبراهيم عبد العزيز

التصميم الداخلي: عصام حسني

الطبعة الأولى، 2018

رَدْمُك: 8-50-6233-977-978

رقم الإيداع: 2017/8984

مؤسسة بتانة

القاهرة

34 شارع طلعت حرب

عمارة يعقوبيان - شقة 25

ت: +202- 257 49570

دبي

ص ب : 97721

ت: +971543446107



www.battana.org

[@battana.org](https://www.facebook.com/battana.org)

[@Battana_](https://www.instagram.com/Battana_)

جميع الحقوق محفوظة للنَّاشِر

طبَّقا لقوانين جَفِّظ حقوق المِلْكِيَّة الفِكرِيَّة.

لا يُسَمَّح بإعادة استخدام وطبع أو توزيع أي جزء من مادة الكتاب؛ مَرَبَّطاً، أو صَوَّراً، أو مَطْبُوعاً، أو إلكترونيًا بدون إذن مُسَبِّق من الناشر؛ طبقاً لقوانين جَفِّظ حقوق المِلْكِيَّة الفِكرِيَّة.

الآراء الواردة بالكتاب لَعَبْرَ عن رأي مؤلِّفها، ولا تُعكِّس بالضرورة رأي مؤسَّسة بتانة.

إبراهيم عبد العزيز

مذكرات عبد الرحمن الأبنودي

في طفولته وصباه

منتشارات بتانة

الطبعة الأولى

٢٠١٨

فهرس

13 مقدمة
15 فرحة ما تمّت
16 الغيطاني يتدخل
18 ثلاث جميلات
30 من تلحيني
34 الاستعانة بالشيخ الشعراوي
	مذكرات عبد الرحمن الأبنودي
47 الحاج قنديل
49 موسيقى الباب
52 غباء
54 أصبح اسمي «رمان»
57 نخلة «الكلب»
61 نحنحة
62 درب النعوش
64 ولدت في «الحُسومات»
65 النقادي
66 أسهل ولادة
68 صيد العقارب
69 التروسة

70	لست فرعونياً
72	«لبّة» أمي
73	الجنون العذب
74	والدي محمود
75	تكشيرة
76	الهروب إلى الكتاب
78	تحفة
79	القطيعة
80	مأساة أمي
83	الزواج الثاني
84	والدي ..يعيش لنفسه
86	الصفاء الأسود
87	الخيرة
88	ملاءتي شاهدي
90	رقابة «يامنة»
91	البتاو
93	أحمد «سمّاعين» الحقيقي
95	الرعي.. مدرستي الكبرى
97	الغناء بدلاً من الصراخ
99	اكتشاف الألوان
100	«عزّب» الأعمى

101	قُفَّةٌ فارغة
103	غناء السواقي
106	مقاومة الحزن
107	منمة
109	الهروب
110	الأخ الراعي
111	متميز
112	اكتشاف الشعر
114	«حنّا» علمني منهجي
116	ميلاد جيلي
117	بداية الطريق
118	مقالان للأبنودي لم ينشرا
122	رسالة لقلبي المتعب من قلب مصر النابض
125	حكمة الأبنودي (١)
134	حكمة الأبنودي (٢)
145	مراجع المقدمة

شهادة الأبنودي للمؤلف

إلى صديقي العزيز
إبراهيم اخنوخ عبد العزيز ...
المحبوب المرووب . لنني يقسم به أمله
مواهبه لنديب لضانة غياهب لنيوب .
إلى الخايب
الراعي
والخايب ...
لنني ينفي به مواتي وأقواله ورؤاي ..
أدول له متواضعا .. محبا (

كما أن الأبنودي

١٩٩١
— الخايرة

آخر الليل

الكتابات الشعرية



إبراهيم عبد العزيز مع الأبنودي أثناء مرضه به مَقْصَر العِيلِيَّة في
تسعينيات القرن العشرين

الى اطلب انجيل
والعلم الواسع
صديق لي

ابراهيم عبد العزيز
مودة
دائمة

لما ان التابوع
١٩٩٨

مقدمة

لم يتردد شاعرنا الكبير عبد الرحمن الأبنودي في الموافقة على كتابة سيرته الذاتية حين اقترحتها عليه: هو يملئها وأنا أكتبها، وأما سر اختصاصه لي بهذه المكرمة، فقد كشفها زميلي الفنان محمد العسيري في مقدمته للسيرة الغنائية للأبنودي، كبديل للسيرة الذاتية التي فكر فيها، بينما كنت قد بدأتها فعلاً، أو كما كتب: في عام ١٩٩٤ ذهبت إليه -الأبنودي- أطلب منه أن أكتب مذكراته.. نتحاور على فترات ونسجل ثم ننشر هذه السيرة بمجلة «الإذاعة والتليفزيون». يومها قال لي: «لقد بدأت فعلاً مع إبراهيم عبد العزيز.. أمليه وهو يكتب.. وبعدين يا عم محمد انت بتتدخل في الحكايات وتشقلبها تجيب أولها آخرها.. خليني مع إبراهيم مريحني ومريحه» (١)

فرحة ما تمّت

وهكذا مضينا في كتابة سيرة الأبنودي، والتي كنت لفرط إعجابي وسعادتي بها، كنت أحكيها لزوجتي أولا بأول، حتى أن شوقها لحكايات الأبنودي كان يسابق شوقي؛ فقد كانت تنتظر عودتي لأحكي لها حكايات الأبنودي، ووجدتها تتفق معي تمام الاتفاق في أن سيرته أجمل سيرة لأديب؛ لأنها مختلفة ومتميزة عن بقية سير الأدباء الذين عرفتهم أو قرأت لهم، ولذلك كانت فرحتي لا توصف أنني كاتب يد الأبنودي الذي كلما التقيته ليحكي ويقص كان كأنه يكتب ولا يملي، فهو حريص على النقطة والفصلة، وينبهي أن أبدأ الجملة التالية في أول السطر.. وهكذا.. وكنت كلما افترقنا أتعجل بلهفة وشوق اللقاء التالي، فأنت في حضرة الأبنودي تستمتع متعة حقيقية، بلهجته وأسلوبه وحكاياته وتفاصيل التفاصيل كأنه روائي، إلى جانب كونه شاعراً متميزاً.. فمتعة الحوار معه لا تقل عن متعة الاستماع إلى أشعاره؛ لقدرته على نسج كلمات النثر، كما هو مستطيع نسج كلمات الشعر بنفس القوة والقدرة والحرارة والصدق.. ولكنها فرحة ما تمّت.

الغيطاني يتدخل

وإذا بالأبنودي يطلب مني التوقف عن استكمال كتابة سيرته الذاتية، أما السبب الذي لازلت أتعجب منه وله حتى الآن، وقد رواه لي: حكي لصديقه الأديب الأقرب إليه جمال الغيطاني أن ابراهيم عبد العزيز يكتب سيرته الذاتية، فقال له: هذا نذير بنهاية العمر! فقلت للأبنودي معقبا: وهل تعتقد بهذه الخرافات؟ فقال لي: لكنني تشاءمت.

وعبثًا حاولت أن أقنعه أو أغير موقفه، رغم ظنّي أن الأمر لم يتعد الدعابة من جمال الغيطاني، ولكنها أيقظت بداخله -عن غير قصد- هواجس الأبنودي التي صارحنى بها وهو في الخمسينات من العمر: هل سيمتد به الأجل لتربية ابنتيه آية ونور حتى يراهما عروسين؟ كان هذا ما يشغله؛ ألا يمتد به العمر حتى يقوم بواجبه الأبويّ تجاههما، بل إن إبداعات الأبنودي في تلك الفترة كانت باتجاه الموت -هاجسه في تلك السن - قصائده عن فؤاد حداد، ومحمود حسن إسماعيل، ويامنة.

ولذلك كان زواج الأبنودي وإنجابه في سن الخمسين هو «تحدّ

للحياة» (٢)

ولعله قد استراح بعد أن أحسن تربيتهما، وعلمهما أحسن تعليم.
وكان يعتبر ابنتيه وأمهما السيدة نهال كمال أقمارًا تدور في فلك حياته
وتضيئها حبا وأملًا، وتضيف إلى عمره أعمارًا جديدة، فكن يملأن
حياته دفنًا وجمالًا، أو كما كتب يهديهن مختاراته من الشعر:
«إلى نهال كمال، زهرة النور، وإلى آية ونور، عطر الحياة»، أو كما
وصفهن في إهدائه لنثرياته «آخر الليل» بأنهن «منابع الود والصفاء».

ثلاث جميلات

أتذكر أن جمال الغيطاني حين أسس جريدة «أخبار الأدب» أراد أن يرصّعها بحوار مع الأبنودي، واقترح عليه أن يرسل إليه بصحفية جميلة، فقال له الأبنودي -حسبما روى لي- إنه لا يحتاج إلى جميلة لأن لديه ثلاث جميلات -نهال وآية ونور-، وطلب الأبنودي من الغيطاني أن يجري الحوار معه إبراهيم عبد العزيز؛ لأنه يرتاح إليه -كما قال لي - وقد ظلت ابنتا الأبنودي هما شاغله، ولم يكن يستطيع أن يكتّم هواجس العمر، فكان يصرح بها في أحاديثه الصحفية قائلا: «الموت طبيعي، أنا في سني دي يعني رؤيتي للحياة كلها تبقى اتملكت في إيدي، وبعدها أنجبت الطفلتين الصغيرتين آية ونور، بقى إحساسي بالموت قوي؛ لأن عمري ما كنت أعرف الحياة من الموت، بكره من امبارح، وكنت عايش، ومن يوم ما جبت آية ونور بقيت لما أبص ليهم أبص للمسافة بيني وبينهم، والإنسان ينجب عشان يخلي أولاده صورة منه، لكن لما يبقى ماعندكش وقت تخليهم صورة منك وسايهم للدنيا، كأنه خطأ، والإنسان بعد الأربعين يقولك صباح الخير يا محمد، عمك مات، تقول له إزيك يا علي،

يقول كده. أنا مش علي. أنا أخوه الصغير.. علي مات»^(١).

ويتحدث الأبنودي مع ذاته: «أقول لنفسي بل بصوت تسمعه مني هي -ابنته- أحيانًا، كيف ستعيشين طفلة يكبرها أبوها بأكثر من نصف قرن في عالم جهنمي كالعالم الآتي الذي نصنعه من أجلها بإتقان الآن في هذه اللحظة، وليس حولها من حماية أو حراسة كبير أو صغير، أهلي أو حكومي، وليس في حوزتها ميراث تشتري به أمنا أو جمالًا كما يفهم المصريون الجمال الذي يشترون به الكنف والحضن والزوج العصري».

لقد أصبحت نهال زوجته، وابنتاه آية ونور، هن سيرته الذاتية الجديدة والوحيدة.

لقد بدأ الأبنودي حياته البكر الجديدة، وهو في الخمسين من عمره بعد انفصاله عن زوجته الأولى، وهي تجربة لا ينكرها أو يتهمها، ولكنها جمّدتَه وهو الثائر المتمرّد والشاعر الحر الطليق، أو كما يقول: «أنا لم أدن علاقتي السابقة، ولم أقل إنها علاقة سيئة أو فاسدة، ولكنني شعرت بالاختناق، هذه مسألة خاصة بتكويني الذاتي، وطريقتي في العمل، وطبيعتي، وارتطامها بما نبت في طبيعة الآخر.

١- لتوضيح اختلاف الصورة بين «جيله» وبين ابنتيه «جيل آخر» كتب الأبنودي: «وقفت متحيرة! أتأمل ابنتي آية «٩ سنوات» وكأنني لم أرها من قبل، قلت لنفسي: البنت ليست غبية إلى الحد الذي تحصل فيه علي هذه الدرجات المتفوقة «٩٨,٥ من مائة» سألت أمها: هل تظنين أن ابنتنا غبية؟ قالت: إنها طبيعية.. تبكي، وتضحك وتلعب وتستمتع بحياتها، سألتها: إذن لماذا حصلت على هذه الدرجة المرتفعة جدًا؟ انصرفت معتقدة أنني أطلق إحدى نكاتي التي لم تعد مجبرة علي الضحك بعدها.

في تاريخ تعليم عائلتي لم يحدث أن ارتكب أحد هذا الخطأ، كنا ننجح بدرجات «علي الحركرك»، وكنا نسخر من هؤلاء الذين يفخرون بتفوقهم الدراسي علينا؛ فقد كنا نتفوق عليهم في العفّة والنشاطات المدرسية التي لم يكن لهم نصيب فيها أو منها، كنا نضطر إلى التصفيق لهم في الفصل وكانوا يضطرون إلى التصفيق لنا مع المدرسة جمعاء.

دائمًا كان الأوائل صّاممين معنطين، محسوبي الخطوات، أما نحن فقد نبتنا وترعرعنا في حرية الشارع، وكنا نشكل نضال النظام المدرسي الصارم، كيف أتخيل ابنتي من الأوائل ولم يسبقها إلى هذه الفعلة عم أو خال؟ إن نظام التعليم التقني المنعزل عن الحياة لا يخرج إلا أمهات بلاستيكية لمن صدقوه، فكيف صدقته ابنتي؟ هذه المناهج التي لا تصادق ولا تصادق.. من هنا جاء الرعب؛ رعب أن تستمر البنت علي هذا المنوال، يعني هذا أنك إذا خاطبتها وهي في الجامعة، ونبتها إلى أحوال مصر مما لم يرد في كتب الوزارة؛ سوف ترد عليك باندهاش من كأنهم يعيشون وراء البحار قاتلة: «لا يا شيخ؟!...».. الأبنودي

(آخر الليل .. الكتابات النثرية - روز اليوسف - الطبعة الأولى ١٩٩٨).

هناك أشياء سرية، بعضها يتعلق بالتوافقات النفسية والفكرية
والعاطفية.

استشعرت رتابة وتقليدية الأمر، بينما مازلت أحمل الروح الثائرة
المتوثبة للاستمرار، ولشق قنوات أخرى، ولتجديد الفكر والحركة
وطريقة السلوك.

آلاف الأشياء التي لو ذكرتها، فسوف ألام -أيضاً- لومًا شديدًا،
وأعاقب من هؤلاء الذين يرغبون في أن يعيشوا لي حياتي.
والقضية هي قضية اثنين يحققان شيئًا يريان أنه شيء نبيل أو غير
نبيل؛ شيء في مصلحتهما، سواء مصلحتهما نبيلة أو غير نبيلة، وفي لحظة،
يخرج أحد طرفي العلاقة خارج دائرة مصالح الآخر، أو خارج دائرة
الهدف الذي تتعلق به حياة الآخر، والذي إذا لم يتحقق فإنه يموت.
وقد وجدتنى في لحظة أقول:

«ننام من غير ونس

ننام زي الجثث

كأننا بيتين

كأننا موتين

وانت اللي كنت الابتسام

وأنا اللي كنت العين

دلوقت بيضايقك دراعي

إن لمس

دراعتك الممدود

ويخنقني أنا همس النفس

إيه اللي كان وانطفأ؟

إيه اللي كان وانطلق؟

إيه اللي كان وانحبس؟

جسي شفايفي بصوابك

وحسي طعم العبث!!

شبابيكننا من غير هوا

شبابيكننا من غير ضو

البحر مرصوف بلاط

والأوضة وسع النو

أنا وانت نجم في تراب

أنا وانت ضل الجو.

من حق الناس أن تنفصل بالحلال، فلماذا يسمح بهذا في الصداقات ولا يسمح به في الزواج؟ وفي اعتقادي أن الصداقة شيء نبيل جداً، لا تقل نبلاً عن الزواج إن لم تكن تفوقه؛ لأنه غير مشروط، وبغير مصالح، وبغير دوافع، وعندما تفتح دواوين شعري كلها تجدها تتكلم عن الأصحاب، والرفاق، فالأم والصداقة عندي من أعلى القيم الموجودة في شعري، فلماذا لا يحزن المجتمع إذا انفصل صديقان؟» (٥)

ولم يكن الأبنودي بعد نهاية تجربته الأولى يعترف بمسألة السن هذه، حسب تعبيره «صحيح أنني انفصلت في سن الخمسين، ولكن مشكلتي أن قضية السن غير مطروحة عندي بالمعنى التقليدي؛ فأنا

-بالفعل- لا أملك هذا الوقار المزيف لمن هم في الخمسين، ولا أملك رتابتهم، وقصائدي الآن أكثر شباباً من قصائدي الأولى» (٦).

لم يشعر الأبنودي -إذن- بمسألة السن عندما تزوج نهال، رغم أن المجتمع -كما يقول-: «بدأ يناقش التناقض بينى وبين زوجتي؛ أنا كبير في السن وهي صغيرة؛ أنا صعيدي خشن وهي جميلة؛ أنا فقير وهي من طبقة مستريحة» (٧).

ولكن الأبنودي رغم هذه الفروق فإنه قرر -برضى الطرف الآخر- أن يتزوج، وليس كما رأى من «تورطوا في اللغط في سيرتي وتصويري بمظهر الدنيء الذي طمع في الفتاه الصغيرة الجميلة دون مراعاة لكبره في السن» (٨). إنه يتذكر: «في البداية كانت -نهال- دائماً تترك لي رسائل موقعة باسم بنتك نهال! ولذلك لم أتخيل أن أتزوجها، ولكن حدث ما لم أتوقعه، أمي فاطمة جنديل كانت في مرة بتزورني في القاهرة ورأت نهال وهي التي اختارتها لي، وصممت أن أتزوجها دون غيرها» (٩)، فوافق ذلك هوى لدى الأبنودي لأنه صادف «الإنسانة التي تستحق أن أبدأ معها من جديد» (١٠). و«لأن هذه العلاقة كفيلة بأن تجعلني أبداع وأمارس حيويتي» (١١).

وجاءت ليلة زواج الأبنودي من نهال في يناير ١٩٨٦ لتكون ليلة فاصلة في حياته، يؤرخ لها الشاعر بفترة قبل زواجه من نهال كمال، وبعد زواجه منها.. يتذكر: «عشت على قدر ما عشت في القاهرة لم أصادف ليلة كهذه، فحين عقدنا القران وتزوجت نهال كمال، انقلبت الطبيعة رأساً على عقب في حالة من إعلان الغضب لم أر له مثيلاً

من قبل؛ إذ هطلت الأمطار وبرق البرق، وكانت ليلة لا يرى فيها أحدًا أحدًا في الشارع، وجاء أهل العروس من الإسكندرية ومن طنطا تحت هذا الجو العاصف غارقين في مياه المطر، وأحذيتهم غارقة في الوحل لتتم الاحتفالية البسيطة، وحين أردنا النزول كان المطر والرعد لم تهمد حالتهما بعد - وكانت هناك حفر بجوار نادي الصيد انزلقت إليها السيارات، ونزلنا بملابس الزفاف نشمر البنطلونات ونخرج السيارات، نظرت إليها وقلت: «شفت الطبيعة غضبانة على الجوازة ازاى مش الأصدقاء بس والرغى اللي حوالينا وإنما الطبيعة سخطت سخطًا مهولًا»، ولقد ظللنا أكثر من ساعة ونصف الساعة نحاول إنقاذ السيارات، وكان أهل نهال متعجبين؛ كيف سيصلون إلى بيوتهم، ولكن نهال كانت تبتسم وتقول: ما دامت الأمور بدأت بهذه الطريقة فسوف نعيش حياة رائعة.. وقد كان. صدق ما قالته نهال». وقد جعله الزواج من نهال يشعر بالفرق بين الزوجتين كما عبر عنها: «أستطيع أن أقول إن زيجتي الأولى كانت زيجة الحياة العملية، أما الأخيرة فهي إطار للسكينة والإيمان بقيمة الشاعر-وليس الرجل- وهي الهرب من التسلط.. ونوع من نفذ الأغلال باعتبار أن ذلك واجب شرعي.

وقد أثبتت نهال أنها ليست مجرد إنسانة بسيطة وجميلة؛ وإنما هي حياة كاملة مكتملة» (١٢)

أما مسألة السن فلم تكن الزوجة تشعر بها كما يصف الأبنودي: «المشكلة أن نهال لا تراني كبيرًا في السن، وإنما تعتقد أنني أكثر شبابًا

منها، وأنني عجزت فقط في عيون الآخرين» (١٣).

ولم يبدأ الأبنودي الشعور بمسألة السن هذه إلا بعد أن أنجب ابنته الأولى «آية» ثم «نور»

هذه الليلة عند الأبنودي مرتبطة بعاطفة جديدة لم يشعر بها أبدًا -وهي عاطفة الأبوة- أو ليلة ميلاد أول طفلة له «آية»، يتذكر: «لم تكن في خطتي مسألة الخلفة، أو الإنجاب مطروحًا أو في مخططي، لكن حين تزوجت نهال وأكرمنا الله بحملها الأول، كنت في حالة من فقدان التوازن؛ إذ كان عمري حوالي خمسين سنة، والتجربة بالنسبة لي جديدة جدًا وكل صلتي بقضية الإنجاب بلهاء وغير واقعية. ما كنا نراه في السينما أن البطل يروح ويجيء أمام غرفة الولادة وهو يدخل سيجارة من سيجارة ثم يخرج الممرضة لتقول له: مبروك جالك ولد أو جالك بنت زي القمر.

لكن حين وقفت مع حماتي يرحمها الله، وهي سيدة راقية ومؤمنة وصبورة وذات خبرة بالنسبة لي، وظللت قلقًا أمام غرفة الولادة، وبعد قليل قالت لي حماتي: ما سلمتش على بنتك ليه يا عبدالرحمن؟. قلت لها فين بنتي؟. قالت لي اللي مرت بها الممرضة. قلت لها وليه ماقولتليش؟ قالت: اعتقدت إنك تعرف، فالممرضة لم تقل الجملة التقليدية اللي بنسمعها في السينما المصرية -وكانت ركبتاي تصطكان وجسدي ينتفض- ثم أشارت للممرضة: هاتي البنت. فأحضرت البنت، فنظرت إلى وجهها وأنا لم أعتد هذه اللحظة، فوجدت وجهها أزرق وعينين بهما هالتان من السواد، ولم أتخيل أنني أدخل بهذه السلالة إلى بيت كمال حافظ..

قلت يا ربي أليس كافيًا أنني دخلت إلى هذه العائلة وغيّرت الصنف،
كمان بنتي! وفي هذه التوهة نسيت أن أعطي الممرضة مالا.. ووجدتني
أحاول المغادرة خجلًا، وكان كل ربعي أن البنت خرجت ونهال لم تخرج،
وعرفت أنها صعدت إلى غرفتها وذهبت إليها وملت عليها وقلت لها:
البنت وشّها مفحص قوي. سمعتني حماقي قالت: المواليد كلها في الأول
كده.. البنت كويسة والبنات لها سبعة وجوه وبطل اللخبطة اللي انت
فيها، البنت حلوة ونهال ربنا كرمها وآخر النهار هاتروح بيها».

حاول الأبنودي أن تكون ابنتاه صورة منه، مع وصلهما بجذوره، مبتدئًا
بالاسم، ودار بينه وبين زوجته ما يشبه صراع الأجيال، ولكن من النوع
اللطيف، يتذكر الأبنودي: «أحب الأسماء العربية مثل عائشة وفاطمة
وليلي وزينب، لكن زوجتي -السيدة نهال كمال- ترى أن هذه الأسماء
على الرغم من قداستها الدينية والتاريخية أصبحت أسماء قديمة قد
تصبح مسار سخرية في مدارس اللغات العصرية، وتقول: تخيل طفلة
سمراء خشنة الشعر قصيرته، واسمها عائشة أيضًا، لاشك أنها ستعامل
كـ «كانجارو» في هذه المدارس التي هبطت علينا فجأة لتصبح منارات
عالية للعلم المصنوع في قرانا الدامسة؛ مما جعل أهل المدن يذهبون
إلى الريف أو الصحراء، ليس للسياحة ولا لاكتشاف مصر الداخلية؛ ولكن
فقط لأن أصحاب المال اشتروا الأرض هناك وأقاموا عواصمهم التعليمية؛
لذا رفضت زوجتي أن تسمى طفلي الأولى فاطمة، مثل اسم أمي
وأختي، فاضطرت إلى تسميتها «آية»، ولم تسمح لي في المرة الثانية أن
أطلق اسم والدتي المرحومة عائشة، فأسميتها «نور».

حين جاءت «نور» إلى الدنيا سمراء في لون الغروب الصعيدي العريق العتيق، صحت: «نور.. أمّا كان من الواجب أن أسميها ليلي؟ ونطلق عليها كما نطلق في الصعيد على اسم ليلي، اسم «ليلة» بالعامية المصرية، ساعتها كان كل من الدال والمدلول، والصفة والموصوف سينفض عنه الغرابة؛ فابنتي «ليلة» فعلاً، لكنها من أجمل الليلات التي أحس تحت رموشها بصفاء الطبيعة ولين النسيم».

ولما لم يستطع الأبنودي -أمام رغبة زوجته- تسمية ابنتيه بأسماء عربية كما يريد، فإنه كان يعمل على تذكيرهما بجذورهما، كما جاء الإلحاح أيضاً من هناك، من أرض الجذور نفسها، يتذكر الأبنودي أنه عندما زار قريته بعد رحيل أمه التي كانت تتولى عنه القيام بواجباته، أن استقبله أهلها بفتور عبر عنه أحدهم: منصور الصعيدي، الذي كان يجلس على الدكة الهزيلة قائلاً: «لقد تزوجت هناك وأنجبت فلم نر لك زوجة ولا خلفه، هل تخاف أن نلتهمهن؟ هل قررت أن تربّي بناتك على الطريقة «الأفرنجي»؟ أبنود ليست في حاجة إليك، أنت الذي في حاجة إليها»، ويعلق الأبنودي: «وبالرغم من وعورة أقواله ومرارتها؛ فإنه كان صادقاً كعواصف الصعيد السوداء».

وجاءت أول زيارة لأسرة الأبنودي في العيد، أو كما كتب: «منذ زمن بعيد فقدت طعم العيد ومذاق لحظاته القديمة، وربما قضيت معظم أيام الأعياد السابقة -ولسنوات- داخل جدران المنزل، كبرت ابنتي آية، وهي لا تعرف ماذا يعني العيد؛ فلا إخوة ولا أطفال جيران، ولا حياة اجتماعية متشابكة في هذه المدينة التي فرضت علينا العزلة،

أصبحت ككثيرات وكثيرين مثلها تُعيدُ أمام شاشة التليفزيون، تنظر بغرابة إلى هؤلاء الذين يصطحبون أطفالهم إلى الحدائق العامة أو الأهرامات.

هذا العام -وفاء لعهد سابق، ولتعنيف شديد من أهل قرיתי- قررت أن أصطحب طفليّ إلى قريتهما التي لم ترياها، وهكذا عاشتا تجربة ركوب الطائرة؛ حيث كان الأصدقاء في استقبالنا، ذلك اللقاء الجماعي الأبنودي الحميم أعاد البكارة للمشاعر، والرهافة للإحساس، فكأنني ولدت من جديد، اختطفت النساء زوجتي وطفلي وتناقلنهن من دار إلى دار بعيداً عني، بينما أحاطني الرجال بودهم الغامر الفياض، كان على رأسهم: منصور الصعيدي، ذلك الذي أبكاني عتاباً في المرة الماضية».

كان عيداً حقيقياً، فتح شهية الأطفال للطعام، وفتح شهيتنا -زوجتي وأنا- للحياة» (١٤).

أو كما يقول: «أحاول ربطهما بالأصول، فيذهبان معي وأمهما -نهال كمال- إلى قرיתי أبنود في الصعيد، وقد بدأتنا تحسان بالفارق الرهيب بين حياتنا هنا وحياة الأطفال في سنهما في قرיתי البعيدة» (١٥).

هذا الارتباط بجذوره في أبنود التي لم ينفصل عنها، هو الذي أعطى الأبنودي قيمته وقامته، كما أن اعتزازه بأمه وجدته، أعطاه تميزه واختلافه عن بقية شعراء جيله، فاسمه عبد الرحمن محمود أحمد عبد الوهاب حسن عطية حسن عبد الفتاح عمران، فقد تعقب اسمه الطويل بـ «الميراث»: «فمن قوانين الصعيد في الماضي -كما يذكر- أن تحفظ «سلسالك» العائلي؛ ذلك أن فكرة أوراق إثبات الشخصية لم

تكن قد عرفت بعد، وإنما اعتمد العرب على حفظ شجرة العائلة شفهيًا» (١٦).

وقد أضاف عبد الرحمن إلى «سلساله» العائلي، اسم «أبنود» لتصبح لقبه وشهرته؛ حبا للبلد الذي أنجبه وعلمه، رغم المعاناة التي عاناها، والآلام التي تلقاها، ولكن الألم العظيم هو الذي يصنع الإنسان العظيم - كما يقول المثل الفرنسي - ولذلك فالأبنودي يعترف: «أنا في الحقيقة مدين لكل سنوات العوز والشقاء^(١) الأولى» (١٧)، وفي القلب من أبنود كانت الأم والجدة اللتان تلقى عنهما دروس الإبداع الأولى التي توارثتها عبر الأجيال؛ ولذلك تجد الأبنودي يقول بفخر واعتزاز: «كانت تجربة أبنود أكبر مدرسة؛ أبنود وأمي وجدتي فاطمة قنديل وست أبوها، دول مدرستي الأولى» (١٨). ولذلك فهو مدرك «أنا ابن تجربة خاصة في زمانها وظرفها التاريخي» (١٩). ولهذا لا يشبه الأبنودي أحدا، ولا نلمس فيه أي ملمح من شاعر بعينه من الشعراء السابقين عليه (٢٠)، حتى أن فؤاد حداد الذي يقول في ثقة: «أنا والد الشعراء» هو نفسه الذي يعترف أن الأبنودي هو الوحيد الذي لم يخرج من تحت عباءته (٢١)، وبسبب هذا التفرد الذي تميز به الأبنودي؛ فإنه ظل حتى آخر يوم في حياته يعترف بفضل أبنود وأمه وجدته: «جدتي لأمي مازلت أدين لها بحساسيتي المفرطة وبأرق

١- كان العسل الأسود وصديقه ورفيق رحلته «المش» - سامحهما الله - طعامًا يوميًا مفروضًا على كل فقراء الجنوب، يسكنان معًا في نفس الدور، يرتديان لباسيهما الفخاري كعضوين أساسيين من أعضاء الأسرة. كل أسرة!!
- آخر الليل - السابق.

النصوص الشعرية والغنائية والأدعية والطقوس الدينية^(١)، هي مزيج من الفرعونية والقبطية والإسلامية، التي شكّلت لديّ الرؤية الشعرية، كذلك أدين بالفضل لأمي، وصديقي -وابن عمي- مصطفى، والشاعر أمل دنقل»(٢٢).

ويؤكد أنه «ليس جديدًا أن أقول: إنني مخلص لتلك المرأة الأمية «فاطنة جنديل»؛ أمي التي ألقمتني الكلمات الأولى، وزرعت في ضميري الخير، ودلتني إلى كيفية تناول أمور الحياة بشاعرية، وتغليف مرارة الدنيا بالخيال الشفيف حتى تحتل قسوة المرور في السنوات»(٢٣).

١- يصنف الأبنودي جدته لأمه بأنها «كانت ساحرة معترفة، كانت إذا مرضت تعتقد أنني محسود؛ فتقبض على بعض الملح «الحصى» وتمرر يدها على ظهري مترمة:

يا عين .. يا عينه

يا خاينة .. يا رديه

لا تخونيني في المال

ولا تخونيني في الذريه

اطلعي من عبد رحمان

واد فاطمة من عشيّه.

كان هذا الطقس اسمه «التخريج»؛ أي إخراج العين الحاسدة من جسد «المحسود»

- السابق.

من تلحيني

ولم تكن تجربة الأبنودي الثلاثية بين أبنود وأمه وجدته، إلا الزاد الذي لم ينفد لإبداعه الشعري والغنائي الذي تميز وانفرد به عن أقرانه، حتى أنه كان يلحن أغانيه باعترافه: «أن الكثير من أغنياتي المشهورة هي من تلحيني»^(١)، أضعها جاهزة بين أيدي الملحنين، ولا أسمح بلحن لأغنياتي لا أوافق عليه» (٢٤).

وقد جعل الأبنودي للغناء لونًا غير مسبوق، وطعمًا متفردًا، فغنى له مشاهير المطربين والمطربات، كما أنه يرى حسبما صرح لي: «ربما كنت أول من كتب أغنيات للمسلسلات، وأول من ابتدع هذا اللون الفني في مصر؛ وبالتالي في العالم العربي، بحكم أقدمية التلفزيون المصري، فلا شك أن أول مسلسل تليفزيوني عرفه الجمهور كان «هارب من الأيام» لثروت أباطة، عام ٦٣ أو ٦٤ وكنت أنا الذي اقترحت عمل أغنيات للمقدمة والنهاية، وكان الأستاذ نور الدمرداش -المخرج- قد أرسل لي للاستعانة بأشعاري وبعض الأغنيات داخل المسلسل، واشتهرت الأغنية جدًّا، وكانت تغني في الشارع وتوالت الأعمال بعد ذلك».

١- كان الأبنودي يجلس تحت عامود الإنارة في شارع الحلوى ليقراً ويعزف الناي
«أبي والأبنودي» -مها جمال- مجلة «الشعر» العدد ١٥٨ - صيف ٢٠١٥.

ولذلك حقد الكثيرون على الأبنودي ووجهوا سهامهم إليه^(١)، مع أنهم كان بإمكانهم أن ينفردوا ويتميزوا مثله، لولا انفصالهم عن جذورهم، وعدم استفادتهم من تجارب بيئاتهم الأولى، ولذلك فالأبنودي يرثي لحالهم، وينظر إليهم في دهشة قائلاً: «إنني أتعجب لهؤلاء القادمين من القرى ويحملون أشعاراً لا تمت إليهم في الحقيقة بصلة، وكأنهم نزلوا مع الندى والمطر، ولم يهنأوا على حجور أمهات، ولم يجر خلفهم كلب في دروب القرية، ولم يسرقوا «كوز ذرة» من حقل وطوردوا من صاحبه، فإن هذه الأشياء تظل محفورة في ذاكرة الضمير بأقوى من أية صور أو أفكار أخرى، ومع ذلك لم تلفت نظرهم ولم يتذكروا أمهاتهم في أشعارهم التي هي أقرب لمن عاشوا طفولتهم في أوروبا» (٢٥).

أما الأبنودي فلم يشبهه أو يقلد أحداً، هو فقط يشبه نفسه، ولذلك فهو يعرف قدر نفسه: «أولاً لم يؤثر في أحد أدبياً أو فكرياً، عارف ليه؟ لأنني ابن مدرسة الفلاح المصري والصعيدي، المهمل هناك؛

١ - ظهر إحساس الأبنودي بهذه الأحقاد حين كتب: «إذا ما انفكت القبضة في المستقبل وسمح بحرية الاستنساخ؛ فإنني واثق من عدم استنساخي.. أولاً: لأنه لا مبرر لذلك؛ فإن الكثيرين يرون أني عشت أكثر من اللازم، وملأت الدنيا من حولي إزعاجاً وغلابة، وسددت الطريق أمام الكثيرين من صغار الموهوبين، وثانياً: لأنني أسمر اللون واضح المصرية، وقد اكتشفت أن سكان مصر لا يحبون الصفات الأصلية التي تميز المصريين: الوجه الغامق، والجسد النحيل، والشعر الأكثر.. تلك الصفات التي تجتذب فتيات أوروبا ويعتبرنها مثلاً للرجولة والفحولة، ينفر منها سكان مصر؛ لأنها دليل خروج من طمي مصر وانتماء صاحبها لطبقة الفلاحين، فمثلي لا يستطيع أن يفخر بأنه سليل الترك أو المماليك أو النورماند أو الفرس أو السلاجقة أو الرومان.. أو.. أو.. أنا مصري ابن مصري وأشابه العم سيتي الأول إلى حد بعيد، وتكفي نظرة لجسمانه البالي لاكتشاف التطابق التام» - آخر الليل - السابق.

لذلك لم يؤثر في أحد أدبيًّا ولا فنيًّا إلا الفلاح أبي وأمي والمربي
الفاضل^(١).. إنهم محبرتي اللي عمر مدادها ما خانني والذي لا ينتهي؛
إذ حينما أحتاج لأن أكون نفسي أمد قلمي في هذه المحبرة» (٢٦).
وكما يعترف بأنه ليس له أساتذة في الأدب والفكر، فإنه يعترف
أيضًا بأنه ليست له مدرسة ولا تلاميذ: «لا أحب أن يكون لي مدرسة.
وأكرر لك أنني لا أفضل أن يكون لي مدرسة؛ لأن لكل منا خصوصيته
وموهبته التي منحها الله له» (٢٧)، ولذلك لا ينكر الأبنودي اتهامه
بأنه ذاتي جدًا: «حقًا كشاعر وكإنسان أنا كذلك» (٢٨).
ولذلك حيث تصاعد الاتهام ضده: أنت متهم بأنك غضوب
ولا تحب أحدًا إلا الأبنودي؟ أجاب: «قد يكون هذا انطباعًا تولد
في أذهان البعض لأني أحيانًا أحب أنؤكد الصورة التي يرسمها لي
أعدائي؛ فمثلًا هناك اعتقاد أنني لا أحب من الشعراء إلا أنا، وحين
أرى البعض يطلق هذا فأنا أسمى نفسي عبدالرحمن «الأحقودي»؛
تأكيدًا لكلامهم، وسرعان ما يلتقط تعبيري أصحاب المواهب المبتورة
ويطلقونه عليّ على أساس أنهم قائلوه، هذا كل ما في الأمر» (٢٩).

١ - يتذكر الأبنودي مرحلة دخوله الكتاب، يقول: «حين تركت القرية إلى مدينة قنا ألحقني الوالد بمدرسة المحطة التي كانت ملاصقة لمحطة السكة الحديد، وكانت ذات مبنى خشبي تهتز وترتج وتكاد تتخلع عند وصول كل قطار ومغادرته. لكن ليس هذا موضوعنا. في الإجازة كان الوالد يصر على أن نحفظ القرآن الكريم في كتاب الشيخ «فلان» وعلى الرغم من أنني أدين له بهذه اللياقة اللغوية والمعرفة بالقرآن الكريم بقدر ما كان الرجل قاسيًا جدًا في تعليمنا، ليس على طريقة الشيخ التي نراها في الأفلام والمسلسلات؛ وإنما كان معه شيخان آخران، وكان «التسميع» يوم الخميس، فكان ينتظر هذا القرش واسمه «الخميس» وكان هناك مَثَل يقول «خد خمسة وإن شأ الله ما قرا» كان يرصنا طابورًا ويمسك بيده «شاكوشًا» حديدًا وأحد الشيخين يمسك بزجاجة صبغة يود والآخر يحمل قطنًا في يده، ليس قطنًا طبيًا أو معلوجًا؛ وإنما قطن ببذرتة. فكان الشيخ الكبير يسأل «جبت الخميس»؟ ويا ويله من يطمع في القرش. ويبدأ التسميع وإذا «تأتأ» أحدنا وقال «آآ» يقول «آه يا ابن الكلب» وإذا بالشاكوش يهوي على رؤوسنا في حر «قنا» فإذا بالدماء تنفجر وتغرق الجلباب، وهذا يعني أن الولد الذي بعده لن ينطق أصلاً. الشيخ الآخر يدلق صبغة اليود بالرأس والشيخ القصير يسد الجرح بالقطن غير المعلوج. وهكذا حفظنا جزءًا كبيرًا من القرآن تحت سطوة الإرهاب وقسوة الرجل الذي أفادني كثيرًا والذي أدين له بالكثير مما أنا فيه.

ولكن الأبنودي يغضب «من الأخطاء المقصودة التي يرتكبها أحيائي،
أو محاولة النيل من سمعتي أو كرامتي» (٣٠).
ودفاعه عن كرامته قد يصل به إلى أقصى مدى، أو كما يقول: «أنا
مازلت قادرًا على الشجار باليد، وأؤمن بأخذ الحقوق باليد» (٣١).

الاستعانة بالشيخ الشعراوي

وأذكر أنني قد عانيت من غضبه كما نلت من عطفه وتقديره، ففي أول مقابلة صحفية لي معه كان الزكام هو حالي أثناء الحوار الذي اضطررتني الظروف إليه، ومع ذلك كان الرجل عطوفًا إلى درجة أنه كان يمدني بالمناديل الورقية كلما تصاعدت توابع الزكام، حتى أستطيع استكمال الحوار، دون أن ينفر أو يضجر بل واصل الحوار حتى نهايته متمنيًا لي السلامة، وذات مرة -بعد أن توطدت علاقتنا الصحفية والإنسانية- ظن أنني جئته مبكرًا عن موعدني، فغضب مني رغم أنني جئت في الموعد تمامًا، حينما طلب مني زيارته بعد صلاة الجمعة، فصليت الجمعة في مسجد مجاور لبيته وذهبت إليه بعدها دون أن أفطن إلى أن الأمور في بلادنا لا تسير بهذه الدقة، ومن ثم فقد كان الأبنودي كمن فوجئ بي بعد صلاة الجمعة مباشرة، وهو لا يصحو من نومه إلا في منتصف النهار^(١)، فقام بواجب الضيافة، ولم يمكنني هذه المرة من إملاء حلقة جديدة من مذكراته التي كنا قد بدأناها قبل هذه المرة بمرات، وحدد لي موعدًا آخر.

١- «نومي مقلوب.. استيقظ ليلاً وأنا نائم نهاراً»
-الأبنودي- السابق.

لم أغضب من الأبنودي الإنسان، قدر غضبي من الأبنودي الأديب
الفنان لأنني عدت خالي الوفاض دون أن أسمع وأستمع بحكاياته، أما
هو فلم يحرمني من رأيه في وتقديره لي حين أهداني كتابه «مختارات»
من شعره، فكتب:

«إلى القلب النبيل

والقلم المؤتمن

صديقي الحميم:

إبراهيم عبدالعزيز

مودعة دائمة

عبدالرحمن الأبنودي ١٩٩٨»

كما أهداني كتابه «آخر الليل.. الكتابات النثرية» قائلًا: «إلى صديقي
العزيز إبراهيم أفندي عبدالعزيز، المحبوب الدءوب. الذي يقترح
من أجل جواهر الأدب الضائعة غياهب الغيوب. إلى الفارس الدارس
والحارس، بعض نتف من حياتي وأقوالي ورؤاي.. أقدمها له متواضعًا،
محبةً، عبدالرحمن الأبنودي ١٩٩٨- القاهرة.

35

وحين داهمه المرض استعان بي لكتابة مقالاته بالصحف، فكان
يمليني، ولم ينس تحيتي، فكتب بـ «جريدة الأسبوع»: «لا أكذبكم
القول حين أقول إن البصر ينسحب من عيني كخيوط ضوء النهار
لحظة الغروب، وأنني منذ فترة ألجأ إلى أحد الأصدقاء الخلاء أُملي
عليه مقالاتي؛ الأستاذ إبراهيم عبدالعزيز، الصحفي بمجلة الإذاعة
والتليفزيون، وصاحب الكتابات المعروفة عن طه حسين والحكيم

ويحيى حقي، وهو يلقي ما بيده ويأتي ليمارس هذا العمل الممل بحب، ولا أعرف كيف أرد له الجميل!! - ٢٢ مارس ١٩٩٩.

ولم يكن إملاؤه لمقالاته عملاً مملاً بل كان تشریفاً وثقةً أعتز بها، وهو يجعلني كاتب يده، وقد فاجأني وهو لا يزال يتلقى علاجه بقصر العيني وهو يناولني هدية، قال لي إنها علبة حلوى للأولاد قادمة إليه من سوريا، وإذا بها عبارة عن المصحف الشريف الذي لازلت أعتز به، إلى جانب مصحف آخر أهدانيه الشيخ الشعراوي، الذي كان الأبنودي يحترم آراءه، فقد حدث أن اتصل بي الأبنودي ذات يوم ليذكرني بأنني أجريت حديثاً مع الشيخ الشعراوي على صفحات مجلة «الإذاعة والتلفزيون» تحدث فيه عن المؤذنين الذين يرفعون مكبرات الصوت ويزعجون الناس بلا مبرر، وطلب منّي الأبنودي أن أمليه نص ما قاله الشعراوي ليستعين به في مقال يكتبه بجريدة «الأخبار»، وأمليته رأي الشيخ حول كثرة الميكروفونات المزعجة الزاعقة بالأذان في كل مكان، وهو ما أسماه الشعراوي مستنكراً: «هذا جَعْر ديني.. اسمه جَعْر، والقائمون به والمهيئون له والمساعدون له آثمون.. آثمون.. آثمون؛ لأنه إذا كان في الصلاة نفسها قال الله عز وجل لرسوله الكريم: «لا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً»، فالجهر محرم، وقال «ودون الجهر» يعني أقل من الجهر، فما بالك بـ «الجَعْر»، فما بالك ليس بـ «الجَعْر» بل بـ «المكْرِفَة»، (يُكْرِفون) الأصوات ويطلعونها مزعجة خصوصاً بالليل، وهناك المريض والذي يذاكر.

لقد اتخذوا من الميكروفونات ليس وسيلة أذان وإعلام بالصلاة؛ بل اتخذوها منابر إعلام بأصواتهم، وهذا ليس من الدين في شيء». وسرّ الأبنودي برأي الشيخ وأعاد نشره في مقاله، في فترة انتشرت فيها ظاهرة الميكروفونات الزاعقة لأصوات منكرة مزعجة.

و حين كنت أزور الأبنودي حدثني عن طلبات أهل قريته التي لا تنتهي، ومنها دعوته للتبرع لبناء مسجد له مئذنته، والمئذنة معماريًا - كما يقول - هي أصعب جزء في المسجد وأكثرها كلفة، وفي كل الأحوال فهي معذبة تحتاج مالا ربما يساوي ثمن الجامع نفسه - ويتساءل الأبنودي: «وإذا كانت هي الجزء المهم الآن والذي لا وظيفة له، فهل نبنيتها للزينة؟ ألا تشكل اليوم صرحًا مظهرًا بحثًا؟. يتعجب الأبنودي ويتساءل: لماذا لا تصدر هذه الملاحظات عن علمائنا الكبار؟ ولماذا ينتظرون منا نحن دائمًا أن نجهر بها ليعطوا الفرصة للمنافقين والمتسترين بالدين لطعننا في ديننا ونوايانا؟ وهل يمكن لمثل هذه الأمور أن تناقش في هدوء يحكمه المنطق والعقل والدين والعدل دون اتهام أو غمز أو لمز». ومع ذلك فهو لا يريد أن يردّ أهل قريته أو يعيدهم مكسوري خاطر.

هذا هو الأبنودي، يغضب أحيانًا ولكنه يصفو ولا ينكر محبيه؛ ولذلك يجب ألا نتوقف أمام بعض تصرفات الأبنودي إلا في إطار ظروفها وساعاتها؛ طبقًا لمزاجه الشخصي.

كما يجب ألا نتوقف أيضًا أمام آرائه السياسية، التي دفع ثمنها حيناً في السجن^(١).

ومواقفه من حكام مصر الذين قال فيهم^(٢): «مفیش رئیس من يوم ما طلعتنا في الدنيا وممدلیش حبال الود» (٣١)؛ فلهذا أيضًا ظروفه ومناسباته وحساباته التي تخضع لمزاج الأبنودي كأي إنسان، وإن كان هذا المزاج يهمننا في التعرف على نفسية الأبنودي وتفسير بعض من سلوكه، ولنقرأ ما تحدث به عن هذا المزاج^(٣): «أصحو من نومي في الثانية عشرة ظهرًا، وزوجتي تقول لي إن أسوأ

١- ليلة القبض على ابن فاطمة قنديل، هي الصورة التي رسمها الشاعر حيث يقول: ليلة القبض عليّ أو على ابن فاطمة قنديل حيث كان الوالد حين غادرت الصعيد غاضبًا جدًا عليّ من مسألة تركي للعمل الميري والذهاب إلى القاهرة في مغامرة كان مؤمنًا بأنني سوف أعود منها خائبًا، ولكن خلال هذه الخمس سنوات كان اسمي قد بدأ في الظهور، وكان الناس في الصعيد يتكلمون عني باحترام؛ فاضطر في النهاية أن يعترف بوضعي الجديد، وقرر أن يزورني، وفي الليلة التي أتاني بها بالذبايح من حيوانات وطيور وجميع أنواع الرزق الذي كان متوافرًا في الصعيد، وحين أتيت به من المعطة وظللت أتسامر معه، وما إن انصرفنا للنوم، وفي حدود الساعة الثالثة صباحًا هجم على الشقة زوار الفجر للمرة الأولى في حياتي وكأنهم ينتظرون هذه اللحظة التي يصل فيها الشيخ الأبنودي ليعلن رضاه عني، وراح المخبرون والضباط يمزقون المراتب ويقلبون الفرش وبالذات التي ينام عليها هو ويجمعون الأوراق. وقف الرجل مبهوتين ونظرت إليه مشفقًا وقلت له «ما تخافش يابا» هي البلد اليومين دول كده، فقال له الضابط: «ابنك عايز يقلب النظام يا سيدنا الشيخ». قلت له: «يا أي لا تنزعج لست لُصًا أو تاجر مغدرات، ولكنه خلاف بيني وبين الدولة»، ولم يستوعب؛ لأنه كان يؤمن أن طاعة الحاكم من طاعة الله، وتركته لأغيب ستة أشهر حار ودار خلالها، وكان من بين أصدقائه بعض المشايخ المتصوفة وحتى الوزراء أمثال الشيخ الباقوري والشرابي وكثيرين لم يعطوه يومًا إجابة شافية، بل كانوا يطمنونونه فقط، وهم لا يعرفون أين أنا، وظللت طوال فترة الاعتقال أفكر في الرجل المريض وكيف أن هذه الواقعة من الممكن أن تقضي عليه، إلى أن وجدت طريقة أسرب بها أخبارًا تهدئ من روعه، وحين خرجت من الاعتقال ذهبت إليه في قنا وأخبرته أن السجن لم يكن مؤلمًا إلا في شيء واحد: هو أنني حرمت من الاستمتاع بأكل الزيارة التي جاء بها من عند فاطمة قنديل، وهذه هي ليلة القبض على ابن فاطمة»..

- الإذاعة - السابق.

٢- يقول الأبنودي: «وهنا أذكر موقفًا عرفته فيما بعد، وكان من الرئيس جمال عبدالناصر بعد انتهاء جنازة الشهيد الفريق عبد المنعم رياض، وكان حزينًا جدًا على رحيله، وقد استمع إلى قصيدة في سيارته وهو عائد من الجنازة، كتبها وأذاعتها «صوت العرب»، وعرفت فيما بعد من محمد عروق مدير صوت العرب في ذلك الوقت أن توجيهات الرئيس عبدالناصر بعد أن سمعني هي الاهتمام بي لاني في رأيه أقرب صوت له بعد النكسة.

أما -الرئيس السادات- فقد أرادني شاعرًا للسلطة، وحدثت بيننا معارك كثيرة كان شاهدًا عليها فوزي عبدالعافظ سكرتير الرئيس، وكان يتصل بي يوميًا ولكنني كنت دائمًا أقول له أنا رجل رباني الشارع المصري، وولائي كله للشارع المصري وليس لأي أحد، واضطرت لحسم الأمر بالانضمام لحزب التجمع الذي كان في ذلك الوقت يعتبر رجسًا من عمل الشيطان على الرغم من التصريح به.

وأما -للأمانة- الرئيس السابق مبارك كلما كان يحدث لي شيء: مرض أو خلافه، كان يتصل للاطمئنان، وتحدث معي أكثر من مرة وأنا في المستشفى، وكان يفعل ذلك معي ومع غيري من رموز المصريين، والتقيت الرجل مرات في معرض الكتاب وفي اجتماعه مع المثقفين، ولكن لم تكن بينه وبينني علاقة خاصة، وإلا ماكنت كتبت أشعاري التي توضح موقفني بشجاعة، وربما كانت قصيدة «الاسم المشطوب» عن عبدالعاطي صائد الدبابات خير دليل على ذلك؛ فقد ظلم هذا البطل، وكتبت القصيدة التي هاجمت فيها الحكومة والرئاسة، وعرفت أنها أغضبت الرئيس لما قلت: «بلا رياسة بلا معارضة بلا بتاع»

- من حوار الأبنودي لأسامة شلش - أخبار اليوم - ٢٠١١/٥/١٤.

ويقول عن علاقته بالرئيس السيسي: «حين علم عبدالفتاح السيسي بوجودي في القاهرة طلب رؤيتي (أثناء حملته الانتخابية) وذهبت إليه في طريق عودتي لبيتي. قلت له: «مصر لن تسترد عافيتها إلا بالفقراء والشباب، وهما في أسوأ حال».

٣- يحدثنا الأبنودي عن بعض طقوسه: «أنا كائن صيفي، ولدت في الصيف وترعرعت فيه وسوف أموت صيفًا -حدث ومات في تبشير الصيف أبريل ٢٠١٥- لا يحيني الشتاء، ليس سوى لأنني ولدت في الصعيد الأعلى، حيث ترتفع أرض مصر وتلامس الشمس هامة الإنسان، الجبلان يضغطان على ضلوع النيل كل من جهته يصبان لهيبًا يعيل شراييننا إلى فتائل فتاديل مشتعلة. لا أعمل إلا في الصيف؛ فيه أزدهر وتفتح طاقتي، وإذا ما باغتني الشتاء توقفت عن التفكير وصار هقي التدثر. فحياتي ما هي إلا مجموعة أصياف، كل ما عداها عبء، فيها أتحرر وأعطي وأسهر والاقبي الأحباب، ويجب أن يتم كل ذلك بسرعة قبل أن يقاجتني الشتاء الجديد لأنكمش عاجزًا عن التعامل مع الكون في برد المدن، حتى يهل أمشير الجديد».

- السابق.

ما فيّ هو النصف ساعة الأولى عقب استيقاظي، وأتناول كوبًا من القهوة مع الساندوتش.

وأنا أحب الغناء، ويعجبني صوت نجاة الصغيرة، وأحيانًا أغني لنفسي. ومثلما أحبّ الغناء المصري أحبّ الغناء الخليجي، فأعشق صوت أبو بكر سالم وغيره. كما أحب في الزهور الورد البلدي والياسمين، وأجمل خبر تلقيته هو حصولي على ميدالية ناجي العلي الذهبية. ولا أخاف في حياتي سوى فقد الأصدقاء.

وأنا أدخن بشراهة كمية لا يمكن حصرها من الدخان، وأشتري ملابس بالمرصادفة؛ لأن علاقتي بالملابس ليست قوية، وأؤمن بأن الناس تنظر إلى وجهي أكثر مما تنظر إلى سيقاني الرائعة. ولا أعتقد أن إنسانًا بكامل قوّة العقليه قد يخرج من بيته قاصدًا محل أحذية ليشتري لنفسه حذاء مثلًا^(١).

وليس لي حساب في البنك وأملك منزلًا واحدًا «قبل منزل الإسماعيلية للاستشفاء» ولديّ سيارة مرسيدس موديل ٧٦ (حتى وقت حديثه ١٩٩١). اشتريتها بعد ثلاثة أشهر من بيع سيارتي «الлада» بعد أن كرهها أصدقائي وليس أنا.

وأود أن أقول في النهاية إنني لست أؤمن بالفصل في الذمة المالية بين الزوجين، فما يدخل البيت من مال هو للبيت» (٣٢).

ويبقى السؤال الأخير بعد رحيل الأبنودي: ما تأثيره؟

لم يترك لنا أن نجتهد ونستنتج؛ فقد كان واعيًا بقيمة نفسه المبدعة وتأثيرها، يحدثنا: «لقد استطعت -وأعوذ بالله من أذى قوله أنا- أن

١- يعترف الأبنودي أنه حديث عهد بالأحذية.

أحقق للشعر والشاعر شعبية حققها من قبلي الشاعر الشعبي فقط؛
شاعر الملاحم ومغني هموم الفقراء، وقد كنت تلميذاً أصيلاً ومخلصاً
له؛ فوهبني جمهوره العظيم الذي لا أظن أن شاعراً آخر امتلكه»
(٣٣).

ويؤكد: «يمكننا القول، وبدون خجل، إنني شاعر مؤثر يحبه الناس
من قمة المثقفين إلى قاع الفقراء، بل ربما لا تفهم الجماهير كلمة
شعر وشاعر إلا من خلال تجربتي الشعرية التي لمست قلوب الفقراء
وأضاءت بعض الوعي في أفكارهم» (٣٤).

وإذا كنا قد عرفنا أن الأبنودي كان يخشى الموت، من أجل ابنتيه؛ حتى
يصل بهما إلى بر السلامة والأمان في الحياة؛ فإن خوفه من الموت أيضاً
كان يمتد إلى الشعر، فقد كان لديه المزيد منه قبل أن تنتهي رحلة العمر.
يتذكر الشاعر محمد الحسيني لقاءه بالأبنودي في لحظة ضعف
يتعرض لها كل منا وهو يقترب من الموت أو حين يواجه احتمالاته،
فقد جمعت الحسيني بالأبنودي رحلة إلى جامعة جنوب الوادي
لحضور المؤتمر الأول لشعر العامية والذي ترأسه عبدالرحمن.

«صعدنا الطائرة، حلقنا فوق مطار الأقصر، وعادت العاصفة الترابية التي
أخرت الطائرة إلى الظهور، وهنا يحدث أسوأ هبوط يقوم به طيار مصري،
وهم المشهود لهم بالكفاءة في الهبوط، نظرت إلى وجه عبدالرحمن الذي
كان يجلس بجانبني، كانت ملامح الرعب قد كست وجهه، فانفجرت في
الضحك، فقال: يا خال الواحد لسه عنده شوية شعر عايز يكتبهم» (٣٥).
ورغم حزني لأنني لم أستطع أن أستكمل مع الأبنودي سيرته الذاتية

والأدبية التي بدأها واضحًا صادقًا صريحًا؛ فإنني قدرت مأزقه من تقديري لمأزق المشاهير حين يقتربون من سيرتهم الذاتية، وقد عبّر هو بنفسه عن ذلك حين قال: «لا يمكن في مثل بلادنا أن يكتب الإنسان سيرته الذاتية الحقيقية، ومن يحاول أن يقترب من الصدق في كتابة سيرته يخطئ خطأ شديداً؛ لأن الجماهير تضع الأديب في صورة معينة، فلا يمكن أن يحطم بنفسه هذا الإطار ويتحدث عن تفاصيل حياته السرية والعلنية بصدق ووضوح وإلا لفظته الجماهير وعائلته، وانظر ماذا حدث للدكتور لويس عوض عندما حاول الاقتراب من نفسه، ماذا فعلت به عائلته أولاً؟ وكيف شمت الآخرون الذين ينظرون للأمر من منظور أخلاقي وليس أدبيًا أو نفسيًا؛ لذلك يلجأ الأديب إلى شرائح من حياته، ولذلك جاءت تجربتي في «أيامنا الحلوة» التي نشرت في جريدة «الأهرام» والتي طبعت أكثر من مرة، الشكل الأمثل للبحث عن أشكال جديدة للسيرة الذاتية دون أن تخلق التخاصم والرفض عند جماهير الأدب» (٣٦).

ومع هذه التحفظات التي برر بها الأبنودي عدم كتابته لسيرته الذاتية كاملة^(١) فإن الصفحات التي أملاها إياها ربما كانت قبل أن يفكر في هذه التحفظات والمبررات؛ ولذلك جاءت قسوته على

١- يزيدنا الأبنودي إيضاحاً لموقفه من السيرة الذاتية حين كتب: «لكل منا وجهان: وجه نرسمه بدقة اجتماعية مكتملة الشروط - على قدر الإمكان - نظهر به على الناس، ووجه يختبئ تحت الوجه، قد يكون مناقضاً تماماً للوجه الاجتماعي. وجهان: أحدهما يمرق داخل المجتمع يحمل شرعية الوجه والمجتمع معاً، وآخر تكشف عنه لحظات السر الشديد والضرورات الذاتية، تبعد المسافة بينهما أو تقترب حسباً لمتطلبات الخاص والعام، كالمعاهدات السياسية بوجهيها السري والعلني. محظوظون ونادرون وأبطال حقيقيون في مثل مجتمعاتنا، هؤلاء الذين يملكون وجهًا واحدًا ورأيًا واحدًا، ويطباقون بين الوعي والصدق والسلوك، ينتهي الأمر بهم في أغلب الأحوال إلى الجنون أو الاكتئاب أو التصوف أو العزلة التامة عن مجتمع يضيق بالصدق؛ لأن الصدق نشار الدنيا.. الحقيقة مفزعة؛ لأن مفارقات مجتمعنا مفزعة؛ ولأن السير الآمن في الطرق المعبدة يحتاج إلى زئبقية ومرونة، لا يُسمح لك بدونها إلا السير على الأرصفة المتهالكة الخطيرة. هناك في المجتمعات البعيدة - تعني النعم نعم، وتعني اللا.. لا، بينما كثيراً ما تتحول اللا.. في مجتمعاتنا إلى نعم، والنعم إلى لا، وإلا صرت معقداً في عيون أهلك ومجتمعك، نكدياً وثقيل الظل يرفضك المجموع الذي اتفق على التوافق دون اتفاق؛ لذلك تتقدم المجتمعات من ذوات الوجه الواحد، وتندهور يومياً المجتمعات ذات الوجهين!..» - السابق.

والده وأخيه الأكبر جلال، معبرة بصدق عن واقع ما حدث في حياته؛ فقد كان الأب الذي انشغل بذاته عن أسرته سبباً في أن الأم هي التي قامت بمسئوليات الأب، فكافحت كفاحاً مريراً حتى يعيش أبنائها، إلى درجة أنها كانت تنخل التراب بعد انتهاء عملية فصل الغلال عن القش لكي تفوز بكيلة أو كيلتين لتقيم أودَّ أسرتها التي قامت فيها بدور الأب والأم في وقت واحد، ومع ذلك فإن الأبنودي لا ينكر بعض فضل صفات الأب عليه، يتذكر: «لم أكتب يوماً من أجل المال مهما كانت الضائقة التي أمر بها، وهو شيء اكتسبته من والدي؛ فقد كان مأذوناً شرعياً وفرض على نفسه أن يكتب عقود زواج فقط ولا يكتب عقود طلاق أبداً، فكنا بسبب هذا أحياناً نتأخر عن دفع مصاريف المدرسة لفترة طويلة^(١)، الأمر نفسه: هنا لا أكتب على الإطلاق أغنية من أجل المال، ولكنها مشاعري تتسرب من دُرْجي إلى أن يدق بابها صوت أحبه أو ملحن أميل إلى ألحانه» (٣٧).

ورغم أن ما أملاه عليّ الأبنودي من مذكراته لم يغادر مرحلة الطفولة والصبا؛ فإن هذه الفترة -فترة الطفولة بالذات في أبنود- تعتبر الفترة الأهم في حياته، والتي كانت منبعاً لإبداعه وعنواناً على مسيرته الفنية والإنسانية حتى رحيله، أو كما يقول: «مازال

١- عن والده يتذكر: «حين كنت أطلب منه قرشاً لشراء أداة مدرسية، كان الشيخ الأبنودي يبقي يده في جيب جيبته طويلاً ويعاوري أثناء ذلك كي يأخذ وقته ولا يخطئ ويخرج من «سيالته» (حقة بخمسة) كانت القروش وقتها هامة -القرش الأحمر والقرش الأبيض الملقب من الوسط- وكانت تفقد كتاباتها وأرقامها لكثرة تداولها بين أيدي البشر، لكنني -على صغري- أطلقت نكتتي المشهورة التي تقول إن كل تلك القروش فقدت ملامحها بسبب أصابع أبي التي كانت تدعكها في جيبه السفلي حتى لا يخطئ فنطمح. أما أنا فديمقراطي، أتبع أساليب التربية الحديثة في تنشئة ناتي، وأترك الطفل يجرب ويكشف بنفسه الصح والخطأ، لكنه -في الحقيقة- مبدأ مكلف جداً ومرهق جداً لنا، فما بالك بمن يلينا في السلم الاجتماعي؟»
- السابق.

عالم الطفولة هو العالم الغني السخي الذي ألجأ إليه دائماً حين تضيق بي التجارب، ثم إنه مازالت حتى الآن معظم مفردات الطفولة في أبنود أكتب بها، وهي التي أورثتني إياها وملأت بها حجري وجيبي، فأبنود هي تجربتي الثرية، هناك عرفت معاناة الفلاحين.. وتظل أبنود هي عمود الخيمة في تجربتي الشعرية والإنسانية» (٣٨).

إبراهيم عبد العزيز

مذكِّرات عبد الرحمن الأبنودي

الحاج قنديل

كم كان عمري حين كان يقذف بي في الهواء، ويتلقفني في رميات عالية بطيئة تنتهي برميات قصيرة سريعة، وكان يضحك كطفل. أذكر وجهه وكرمشة عينيه من الجانبين، ولم يكن أسمر ولا أبيض، قوي البدن، ضخمة، قصيراً في مجمله.

هل كنت في الرابعة، وهل فعلت معي ذلك قبل ذلك، وهل عرفت ساعتها أنه الحاج قنديل؛ جدي لأمي، أم عرفته بعد ذلك؟ وهل ما عرفته من صفاته تسرب إلى أذني من خلال الحديث عنه أم أنني رأيت ذلك وعاينته بنفسي؟

فأنا أجدني الآن أعرف الكثير عن الرجل، وحين أبحث عن الأصول البصرية فلا أذكر إلا صورة الشيخ الذي يقذف بالطفل في الهواء، وصورته وهو يشد بكرة البثر التي حفرها في «الكرم» الذي زرع نخلاته بنفسه، والذي يحتل نصف مساحة البيت؛ فـ «الكرم» قيراطان والبيت قيراطان. أما البيت، فحتى الآن لا أستطيع تصور بيت آخر حين أحاول رسم (جغرافية البيت الصعيدي أو تصويره) فلقد بناه الحاج قنديل بنفسه، مكان البيت القديم الذي ولد فيه -غالبًا-

وهو بيت عظيم الشأن، يعكس حسًا فنيًا عاليًا، ووعيا بالعمارة والذوق والجمال؛ إذ إن بابه يظل أضخم باب رأيته على الإطلاق بعد ذلك، إذا استبعدنا الأبواب الضخمة جدًا التي تسمح بدخول العربات الكبيرة التي رأيتها في فيلات وأسوار دول الخليج، وتلك الأبواب التي وقفت أمامها كثيرًا -بعد ذلك- في مدينة القيروان بتونس، وبيوت وأسوار مزارع الجنوب التونسي، والفارق أن الأبواب التونسية لا تفتح بأكملها مع كل داخل وخارج؛ لأن بها بابًا صغيرًا للخروج والدخول يسمى (باب الخوخة)، وهي أبواب قديمة جدًا، وجزء لا يتجزأ من أبواب شمال أفريقيا، ووردت كثيرًا بالاسم المعاصر نفسه في «سيرة بني هلال» عند العديد من الشعراء.

أما باب جدي قنديل فهو يعلو درجًا صغيرًا مكونًا من سلمتين بُنِيَتَا بالطوب الأحمر والطين المختلط بالتبن، والعجيب أنه طوال طفولتي وصباي لم تحتج السُلَّمَتان للإصلاح ولو مرة واحدة، أما الباب الذي يبلغ طوله أكثر من ثلاثة أمتار وعرضه أكثر من مترين ونصف المتر، فقد كان يستقر على «عتب» خشبي، قالت جدتي «ست أبوها» حين سألت، إنه من شجر (السنط)، وظلت هذه «العتبة» تزداد لمعانًا وأصالة، وتنعم ويتخلق منها بريق نعومة الخشب كلما مرت بها السنوات، أما الباب نفسه فيقف على وتد يستقر في فتحة على شمال العتبة، ويدخل للعتب الفوقي من خلال وتد آخر.

موسيقى الباب

وظللت منذ كنت طفلاً أحب تلك الموسيقى التي تصدر من حركة الباب فتحاً وغلقاً، وذلك الصرير المحبّب الذي يعكس عراقة خاصة لا تتمتع بها البيوت الأخرى في قريننا؛ إذ إن لكل باب بيت في القرية صوتاً، ويظل صوت باب الحاج قنديل مميزاً، ومُعلنًا، ويشي بوضوح عن الوعي الحقيقي للحاج قنديل بأنواع الأخشاب التي عرفت سبيلها إلى قريننا، ويؤكد ذلك أخشاب بئر كرم النخل حين نصل للكلام عنها. وللبيت سور عال يتجاوز الخمسة أمتار بلا أعمدة تشده، وظل هذا السور يزداد رسوخاً وأعمارنا تتقدم، حتى هُدم بالمعاول منذ سنوات قليلة، ولقد شقي الهدامون في إنزاله من عليائه، مع أنه أيضًا كان مبنيا بطوب التراب والتبن.

وباب البيت كان مكونًا من ستة ألواح طولية تُمسك بها بصلاصة وأناقة ثلاث عارضات مَبْرِيَّة جيّدًا، سمكة لكنها لا تشكل عبئًا على وزنه، وكان يستطيع أي طفل ببساطة أن يفتحه أو يغلقه بأسهل مما تحتاج أبوابنا الحديثة من جهد، وكان الباب لعبتي المحببة في الطفولة، وربما كان صوته -الذي عاشرته طويلًا- أول موسيقى حقيقية

أستمع إليها، وأول لحن أفهمه جيّدًا بكامل تعرّجاته ودرجاته الخافتة والعالية، أحفظه وأردده معه، وأرقبه جيّدًا لاكتشاف الاختلاف بين ما أقول وما يقول الباب.

وكان للباب مِغْلَقَان؛ غلق من الداخل وآخر من الخارج.. وأنا أستعمل هنا نفس التسميات القديمة، فـ «القفل» كلمة لم نتعرف عليها سوى من الحدّادين؛ أما الغلق فهو قفل النجارين، ولقد رأينا صورًا كثيرة لمثل هذا الغلق بمفتاحه الخشبي ذي الأسنان الستة؛ الأسنان الحديدية الستة، الذي يدخل بطريقة خاصة كطريقة غرف الطعام بالمغرفة من (صحفة)، ثم البحث عن الثقوب حتى تستقر أسنان المفتاح الخشبي في ثقوب الغلق العلوية، ثم يجر المفتاح ويد الغلق معًا للخارج فينفتح الباب، وما كان لمفتاح آخر أن يفتح باب جدي قنديل؛ لذا فقد كان هذا المفتاح معلقًا دائمًا في مكان بارز في (صوبات) البيت كي لا يضيع بين أشياءه، أو بين ما يتناثر من قش وأحطاب تعودنا دائمًا أن تبرك بها الجمال أمام الباب من الخارج؛ لتدخل من هذا الباب الكبير وقودًا للأفراد؛ انتظارًا لبرد الشتاء.

وكان يعلو الباب واجهة خشبية محفور عليها بخط متواضع (ادخلوها بسلام آمنين) محفورة بين زهرتين أقرب للسنابل منها إلى الزهور.

وحين ينفتح الباب وتصعد السلمتين، يواجهك باب في المقابل بلا باب، وإنما هو إطار مستطيل خشبي يؤدي إلى الداخل، أما هذه المساحة التي بين البابين فكان اسمها «الديوان»، وفي الديوان ثلاث

كنبات بلون الخشب الأصلي القديم لم يلمسها دهان، وإنما اتخذت لونًا بفعل الزمن وأصابع البشر الذين جلسوا عليها، وشدت بالأكلمة اليدوية المنسوجة من وبر الجمل، من الأبيض والبني، نطلق عليها (البردة الرجالي)، ولم يكن للظهر مساند أو حشيات، وكان جدي قنديل يستقبل ضيوفه ويحل مشاكلهم في هذا الديوان الذي يكون صاحبًا حين يكون جدي بالقرية، وحين يغادرها يظل الديوان لفترات طويلة صامتًا، نقاوم صمته بلعبنا نحن الأطفال، ونقاوم ظلامه بفتح الباب الكبير.

وحين تعبر من ذلك الباب الطولي الذي بلا باب؛ فإنك تنزل السلمتين مرة أخرى إلى الديوان، وكأن الديوان رُدم مترًا بالتراب حتى يصبح في ذلك المستوى العالي عن الدروب وعن بقية البيت، وحين تنزل السلمتين فأنت في الصوبات، والصوبات هو ممراح الصيف، فمساحة الظل تكون قد اتسعت، يفصله عن حر الشارع ديوان البيت، وعن حر البيت بوابة رائعة بلا أبواب أيضًا تتلقف الهواء بطريقة خاصة لترمي به في الصوبات الترابي الذي كان يُرش بالماء طوال أيام الصيف، والذي كانت أرضيته الترابية متماسكة وثابتة وكأنها أسمنتية.

أما الأسقف في الديوان أو الصوبات، فقد كانت من أنصاف جذوع النخل المتكئة على جانب واحد، وجريدة النخل المضفر بالحبال والطين.

ولم يحدث منذ بُني البيت أن احتاج السقف لأي نوع من أنواع الترميم أو الإصلاح، فكأنه استقر ليقى، ولم يكن يضايقنا فيه إلا الدبابير السوداء الضخمة، والزنانين الصفراء التي تجد في السقف وارتفاعه أماكن ملائمة لبناء أعشاشها الطينية بعيداً عن أيدي الصغار العابثين، أما الدبابير السوداء فلقد اكتشفنا غباءها منذ وقت مبكر جداً، وكان يحلو لنا اصطيادها بأعواد الجريد التي نخلصها من خوصها الأخضر، أما الزنان فكنّا نتحاشاه لقرصته المؤلمة.

وفي أوائل الصيف كانت تأتي العصافير أيضاً لبناء أعشاشها في أسقف بيت الحاج قنديل، وتعلمت منذ وقت مبكر التسلق على الجدران والتعامل معها منذ تبدأ في بناء العش إلى أن تضع بيضها إلى أن يفقس البيض وتكبر رويداً رويداً، ومنذ وقت مبكر أيضاً

تفهمت حياة هذه المخلوقات وراقبتها وهي تخرج من بيضها
عارية حمراء كبيرة البطن بما لا يتناسب مع جسمها، صفراء الفم
الذي لم يتحول إلى منقار بعد، إلى أن ينبت الزغب ثم يبدأ الريش
في احتلال أماكنه، وكنت أعرف متى سوف تبدأ الطيور محاولة
تطير أبنائها الجدد، بل وأجري خلفها في البيت، وحفظت حياتها
جيّدًا ربما وأنا بعدُ أتعلم الكلام.

أصبح اسمي «رمان»

في الصوبات وفي الديوان كانت هناك «طاقات أو الطيقان» في أصل البناء، وجدت خصيصًا لوضع المسارج والفتائل للإضاءة، وكان البيت يضاء ليلاً بـ«سراج الزيت» وهو «صحفة» فخارية صغيرة «زبدية» تملأ زيتًا ويضفر فتيل من أقمشة بقايا الملابس تغمس كلها في الزيت ثم يوضع الفتيل في الصحفة، ويطل برأسه على وضع الثعبان، وكان لدينا زناد حديدي وزلطة لإخراج الشرر من ارتطام أحدهما بالآخر ليشتعل السراج.

وكان بالصوبات زير للماء عليه غطاء خشبي دائري، وأربع جرار استقرت في مقعدها الطيني تحت الجدار الذي يفصل الصوبات والديوان لزمان طويل، وكان بالصوبات سريران جريديان، يُستعملان ككنبتين، وكان هناك «المعلق»؛ وهو جسد سباطة نخل قطعت من أصلها ونزعت عنها شماريخها، واحتفظت بانحناءاتها وربطت بحبلين من الطرفين وعلقت في الجدارين بمسمارين، وكان القادم يضع عليهما عباءته أو شاله، وكانت النساء يستعملن هذا المعلق في وضع ملأتهن وطرحهن اللاتي يسرعن بلبسها حين سماع أي طرقة على الباب الخشبي الكبير.

حين تجتاز بوابة الصوبات إلى داخل البيت يكون في مواجهتك سلم طيني يشبه إلى حد كبير السلام الضيقة في معبد «دندرة» و«إدفو» يؤدي إلى الغرفة العليا، ومساحة السطح ذات السور التي تمتد أمامها والتي تطل من يمينها على بيت (أبو العلا)، ومن واجهتها على بيت (محسب)، ومن يسارها على بيت (محمد سعيد العبد)، وقد كان عبداً فعلاً أسود البشرة بما يشي أنه إفريقي، وقد كان من بقايا العبيد الحقيقيين الذين يخدمون عند الولاة المماليك والأتراك كما سيرد بعد ذلك.

أما إلى اليمين بجوار السلم الطيني فقد كان يقع الحاصل الغربي والحاصل الشرقي؛ أما الحاصل الغربي فقد كان (الغرفة الخاصة جداً) لجدي ست أبوها، وكان الحاصل الشرقي مخزناً لغلalna وأشياءنا. ومن الحائط الشرقي للحاصل الشرقي يمتد السور الذي يفصل بين البيت وكرم النخل حتى يصل إلى جنيحة (علي غزالي)، وقد كانت حديقة كبيرة مزروعة بالرمان فقط، ويفصلها عنا جزء من السور العالي الذي يصل إلى خمسة أمتار.

ومنذ وقت مبكر في الطفولة أغرتني ثمار الرمان ذات الألوان العنابية و«النبيتي» والوردية، إلى البحث عن نخلة مجاورة للنزول إلى جنيحة (علي غزالي)، وربطت حبلًا في وسطي، وأخرجت «عب» جلبابي للأمام، وملأت «عبي» بثمار الرمان، ولم أستطع صعود النخلة مرة أخرى إلى أن ضبطني ابنه (منسي) وقد كان ضخم الجثة ولا يستطيع الحركة، إلا أنه استطاع أن يمسك بي؛ فقد كنت أثقل منه، وكانت فضيحة وأصبح

اسمي منذ ذلك الوقت «رُمّان»؛ ففي الطفولة لم تكن أمي وجدتي
تناديان عليّ باسم عبدالرحمن، وإنما باسم «رُمّان»، وهما متقاربان
كما ترى وبينهما لمسة شعر لغزية كانت تنفث من لغة هذا البيت
وتغلف الحياة جميعها بتلك اللمسة الشعرية الرائعة.

نخلة «الكلب»

بجوار جنيّة (علي غزال) كانت تقع «الشونة»، وكانت تنقسم لقسمين: قسم لـ «التبن» وقسم للوقود المكون من روث البهائم.. إلخ، والذي لم يكن يستغني عنه فرن البيت، وهناك سور آخر كان يفصل هذه المنطقة عن البيت ومنطقة الشونة كلها، كان يطلق عليها اسم «بحري»؛ فقد كانت في الجانب البحري من البيت، وكانت واسعة تستوعب لعب الأطفال، وإقامة «الكوانين» الضخمة في العزائم الكبيرة والمناسبات التي لا يستوعب جمهورها الديوان والصوبات، ومن حد بحري حتى حد الصوبات كانت «الفرن» القائمة فيما يشبه الغرفة؛ ولا غرفة، وكانت تتناثر صوامع الغلال الطينية على شكل معماريٍّ ضخم، مُذْكَرًا يُسَمَّى «السنط»، ومؤنثًا يُسَمَّى «صومعة» أو «جوجع»؛ أي قوقعة. بعضها مخازن للغلال، وما اقترب من الفرن كان لحفظ الأشياء وينوب عن الدواليب في عصرنا هذا، وكانت تنزل من السقف «العُلَيْقات»، وهي أشبه بالكمّية، ومكونة من الحبال وشرائط الصفيح، وكان يوضع بها الطعام معلقًا في الهواء بعيدًا عن الهوام والققط والكلاب، وليظل الهواء البارد يضربه حتى لا يفسد.

هذا هو بيت الحاج قنديل الذي خرجت فيه، وتفتحت عيناى على الدنيا أول ما تفتحت على أشياءه. أما النصف الثاني منه فقد كان هو النصف المحبب لي، وربما لكل إخواني؛ فقد كان كرمًا من النخل اختار «فصاة»^(١) من نخل آخر، جدي الحاج قنديل وزرعه -كما قالت- ست أبوها (جدي) وقد حضرت ذلك بعد أن اختار المساحات وحفر الحفر ووضع مع كل «فصاية» بعضًا من فصوص الملح وكبشة حناء وبعضًا من «خبط السنط»^(٢) وقرأ الفواتح وبعض الآيات.

وفي الواقع فإنني ظلت لوقت طويل أحسد جدي الحاج قنديل على اختياراته لتلك الأنواع من البلح، وإن كنت عرفت بعد ذلك أن لكل نخلة في قريننا اسمًا، وأنت بعد فترة من عمرك في هذه القرية تكون قد تعرفت إلى كل نخيل القرية، وحفظت أسماء كل نخلة وعرفت طعمها؛ وبالتالي فهو لم يفعل أكثر من أن زرع ما رأى أنه أفضل النخل في أبنود، أو غيرها.

ويجب أن أتوقف عند هذا النخل، ولأبدأ من الجانب القبلي، فكان أولها نخلة «لازنان»، وبلح هذه النخلة كان يفرز عسلها لدرجة أنه يسيل على الأرض، وكانت الدبابير والزنانير تتحلق بهذه النخلة في كثافة منذ أن يبدأ لون بلحها في الاصفرار، يشدها العسل، وكانت مهمتنا قاسية جدًا في الحصول على بعض ثمارها، وكان لابد أن نبتعد عنها، وإذا اشتقنا لبلحها فعلى الكبار أن يتصرفوا في هذه «الزنانين»، وكانت تقطع دفعة واحدة بواسطة محمد سعيد العبد، وينشر بلحها على سطوح البيت ليجف ويصبح زادًا شتائيًا.

١- نواة البلح.

٢- أوراق شجر السنط الدقيقة، وهي أقرب للحناء أيضًا.

ولو توقفت أمام كل نخلة بمجمل صفاتها وعلاقتي بها لاحتجت إلى كتاب كامل، ولكن كانت هناك نخلة «الكلب» وكانت إلى جوار السور العالي، ومع أن هناك نخلات أخرى كانت إلى جوار السور إلا أن كلاب المنطقة اختارت هذه النخلة بالذات لتقتات عليها، وكانت السباطات التي إلى جوار السور محرمة علينا لأن الكلاب كانت تأكل منها وتلعقها، وكنا نقطعها حين تطيب ونلقي لها ببقية ما تركته. أما نخلة «مغربية» فقد كانت خضراوية، بمعنى أنها ترطب وتجف وهي خضراء اللون، ولم أصادف في حياتي نخلة تشبهها أو بلحة تملك الصفات نفسها، فكل البلح يتغير لونه قبل النضج للأصفر أو للأحمر ما عدا هذه الخضراوية، أما «السكوتي» فقد كانت -وابنتها- تتحول إلى سكر خالص جاف، وكان الكبار يحسدونها عليها لأنهم لا يستطيعون التعامل معها بأسنانهم، وفيما بعد عرفت أن «السكوتي» فصيلة من النخيل تحمل الاسم نفسه ولها الصفات نفسها، أما نخلة «القرية» فقد كانت تمطر بلحها على القرية، فاكسبت الاسم من هذه اللعبة البسيطة، أما «العامود» فقد كانت أعلى النخل جميعاً، وما زلت أتحسر على قطعه حين استطال بشكل مبالغ فيه وأصبح يشكل خطراً على البيت.

وهكذا اكتسبت كل نخلة اسمها من صفاتها أو موقعها أو حادثة جرت تحتها، وكانت اثنتين وثلاثين نخلة، تعلمت صعودها قبل أن أبلغ الخامسة، ولست في هذا فريداً أو مُعجزاً، ولولا نهرات جدي ست أبوها ورعب أمي لتعلمت صعودها قبل ذلك بكثير.

وتجارب طلوع كل نخلة على حدة للمرة الأولى هي تجارب نفسية كاملة تستحق الرصد والتأمل، وبلوغ منتهاها يشبه إلى حد كبير بلوغ مرحلة سنية جديدة، ويتشابه أيضًا مع عبورك النهر للمرة الأولى، ويعطيك طاقة حقيقية، وأملًا أكيدًا في عدم الإحساس بالاستحالة، وأن كل شيء يمكن تحقيقه، وما لا تحققه هذا العام فإنك بالغه في العام المقبل، وهذا العنصر -المغامرة- في حياة طفل أبنود لهو من المكونات الأساسية في بناء شخصيته و«ترجله» (بلوغه سن الرجولة) قبل الأوان بكثير.

نحنحة

ما أذكره عن جدي قنديل؛ والد أمي، والذي بنى البيت الذي شكلني، هو صوته حين يتنحنح من أول الدرب، وكان هذا الدرب، يسمى بـ«الشارع الطويل»؛ لأنه يعتبر أطول شارع مبني في أبنود. وكان حين يصدر عنه صوت الإعلان عن قدومه -وهو صوت يحمل رسالة سرية للنساء بأن يستترن- فكنا نسمعه من بيتنا الذي يقع على هذه المسافة البعيدة من صوته، وهذا هو ما ذكرته منذ قليل، عما إذا كنت فعلاً في سن تسمح لي بسماع صوت نحنحة جدي وتمييزه، وأنني أتذكر هذه النحنحة، أم أنني أتذكر أقوال الآخرين عنها؛ فكثير مما نعتقد أننا رأيناه وسمعناه في تلك السن الخضراء الأولى هي أشياء تسربت من أقاصيص وملحوظات الآخرين، واتخذت صورة التخيل واستقرت في الذهن كأشياء مؤكدة لا تشك فيها إلا حين تقف في نهاية العمر للتحقق منها، وفرز الحقيقي وغير الحقيقي، فإنك تقف حائرًا لا تملك الأدلة الواضحة على ذلك رغم أنك تكون قد عبرت عنها في أدبك كأشياء يقينية.

درب النعوش

بالقياس إلى جيراننا في الدرب الطويل، فرمما كنا أيسرهم حالاً، فلم تكن مساحة البيت -مهما كبرت- في ذلك الوقت تدل على السعة أو الضيق في الرزق، وليست لها أية دلالة اجتماعية أو اقتصادية؛ فقد كان بيت أبو العلا الذي يجاورنا من ناحية اليمين أكبر من بيتنا بأضعاف، وكان أفقر من بيتنا بأضعاف، وبيت محسوب الذي يواجهنا من الجانب الآخر لا حد لمساحاته الفضائية التي تحيط به، بينما لم يكن هناك بيت تقريباً. وكذلك بالنسبة لكل أهالي هذا الدرب، الذي سرعان ما فوجئتُ بتغيير اسمه إلى «درب النعوش»؛ وذلك لأنه في أوائل الأربعينيات جاءت الكوليرا، ونزلت بالناس كالكارثة، وأبادت أهل القرية، وصار الشارع الذي كان الممر الممهد الوحيد للخروج نحو المقابر أشبه بموكب واحد متصل لجنازة واحدة، ولم أرى طوال حياتي هذا الكم من الخشب الذي يحمل جثثاً، وأنا ما زلت بعد في الرابعة، وأذكر تلك الغلاية الضخمة التي في حجم الحجرة أو «أذان» البنزين في آبار البترول، الذي وضع في الاتساع الذي أمام بيت الحاج قنديل، فالدرب ضيق إلا في هذه البقعة التي اختصرها جدي

من البيت لتكون فائدة عامة للناس، وقد كان يلقي فيها -الغلاية-
بالملابس والأشياء والأغراض للغسيل من الميكروب، ولا أدري -وقد
كانت ملاصقة لجدار البيت- كيف استطعت أنا وإخوتي، الحياة، ولم
يمت من هذا البيت أحد؟!!

ولدت في «الحسومات»

تقول السيدة فاطمة قنديل -أمي- إن ابنها عبدالرحمن سوف يعيش طويلاً؛ لأنها ولدته وهي مصابة بالمalaria، وقد كان وباءً متفشياً أيضاً في ذلك الوقت، وكادت أن تموت، وهكذا ولدت ضئيلاً نحيفاً، بل إنها تقول إنها ولدتها في «الحسومات»، وهي سبعة أيام معروفة، قليل من ولد فيها وعاش، بل إن الفلاح المصري لا يزرع في هذه الأيام السبعة ولا ينقل شجرة؛ لأنه يعلم مسبقاً أنه لا حياة لها.

والحسومات هي فترة في المواقيت القبطية التي عشت طفولتي كلها لا أعرف الزمن ولا الفصول إلا بها، ولأني ولدت في الحسومات فقد كانت ساقي -حينما كبرت قليلاً وتعلمت المشي- لا تحملاني، وكانت أمي تربط رُكبي بشرائط القماش والدوبار لكي تتماسك الركبتان.

النقادي

أما كيف ولدت؟

فقد كان والدي مدرسًا للغة العربية في قرية غرب مركز «قوص» اسمها «نقادة»، وهي قرية شبه قبطية، بمعنى أن معظم أهالي هذه القرية «نصارى». قرية لها سمات خاصة؛ فهي تعمل بالنسيج اليدوي، وأمام باب كل بيت كانت هناك الحفرة التي يركب عليها «النول»، أو في الغرفة الخارجية للبيت، وهي قرية مشهورة جدًا بنسجها الحريري الذي يصنع منه «الفركة» وهي العباءة التي تلبسها المرأة في السودان، وفي «أم درمان» سوف تُفاجأ بأن معظم المحلات يُذيل لافتاتها لقب «النقادي»، وتعتبر مع «إخميم» في محافظة سوهاج من أشهر المناطق التي ورثت طرق النسيج الفرعوني، وأينما مررت في شوارع هذه القرية سوف تجد الحبال المنشورة بين بيتين أو شجرتين أو شيئين، والتي نشر عليها الصباغون حريزهم الطبيعي بعد أن صبغوه باللونين الأحمر والأسود، وفي المتحف البريطاني في لندن -فيما بعد- اكتشفت أن حضارة بأكملها كانت قائمة على أرض هذه القرية، وأن قسمًا كبيرًا من المتحف البريطاني يعرض الأواني الفخارية وورق البردي منسوبة إلى حضارة «نقادة».

أسهل ولادة

ولأن والدي ارتبط تعيينه -بسبب عدم إكماله تعليمه الأزهرى- بالتدريس في مدارس الأقباط؛ لذلك نشأ بينهم وتنقل بين مدارسهم المسيحية من مدرسة الأقباط في قنا، إلى المدرسة الإنجيلية في قنا أيضًا، ثم ساوموه ليرفعوا أجره إلى ثلاثة جنيهاً إذا ما قبل أن يذهب إلى «نقادة»، وقد قبل الرجل وظل في «نقادة» هذه زمناً وتعرّف إلى أفاضلها ومشايخها وأقباطها، وحتى الآن تأتيني حكايات من تلك القرية؛ فلم ينسوا ذلك الرجل الذي كان مخلصاً لمهنته أشد الإخلاص، وحملت أمي بي في تلك القرية القبطية، وحين جاء أوان الوضع ركب بها والدي -الصندل الذي ينتقل للضفة الأخرى- ثم ركب القطار من «قوص» -ليلاً- إلى «أبنود».

66

وتقول فاطمة قنديل وهي تتذكر وتضحك: «ظل طوال الطريق يقول: إوعي تعملها في القطر، وظل يجاملني إلى أن وصلت إلى بيتنا، وكدت أن ألد في الطريق، وانزلق مني عبدالرحمن في أسهل ولادة من بين الأطفال التسعة الذين أنجبتهم».

كل ذلك عرفته فيما بعد، أما ما عرفته في بداية تأمل العالم وتلمسه؛ فهو

أن هذا الوالد الشيخ في قنا، وأنه شيخ كبير، وأنه في وظائف مهمة -بالنسبة لقريتنا- وفي صباح شتائي قارس كانت أُمي تضعني على حجرها في الشمس حين مر الشيخ «محمد علي أبو طالب»، وكان رجلًا محترمًا في قريتنا، يلبس اللبس الهاشمي ويضع عقالًا على رأسه، وما يشبه «الجبة»، وهو يقول لأُمي: مبارك يا سيدة فاطمة.. فلقد أصبح الشيخ قاضي مدينة قنا.

وكان يقصد بالقاضي -طبعًا- المأذون، وفعلاً كان الحصول على منصب كهذا في مدينة كبيرة كتلك يتطلب الكثير من العلم والمعرفة؛ فقد كان القاضي يُمتَحَن من قبل قضاة -حقيقيين- يأتون من القاهرة ويمتحنون العديد من طلاب المنصب، وهكذا فاز به الشيخ محمود الأبنودي لينتقل به من فئة إلى فئة ومن طبقة إلى طبقة.

وفي البيت الريفي الفقير لجدي قنديل كنت أرى كتبًا مُنعت من لمسها؛ فهي من تأليف الوالد، وكنت في ذلك الوقت لا أدري محتواها.

صيد العقارب

على السرير الجريدي الذي كان يتوسط الفناء المكشوف، أذكرني وأنا أمسك ببوصة طويلة من أعواد الذرة النيلية (العويجة)، وأحاول اصطيد الخفافيش التي تروح وتجيء في الفضاء في حركة شبه ثابتة وخط سير كأنه مرسوم، ولقد اصطدت كثيراً من هذه الخفافيش برصدي للمسارات التي تتخذها في الهواء، وكنت أنزل رغم ظلام ما بعد الغروب للبحث عنها في أماكن سقوطها، في جسارة، أتعجب كثيراً الآن كيف كنت أقبض عليها، وكنت أمسك بالخفاش وأفرد جناحيه وأتأمل وجهه الفأري، وكانت هذه واحدة من متعي الغريبة التي ظلت تتطور عاماً بعد عام من صيد الخفافيش إلى صيد العقارب السامة المرعبة.

التروسة

كان أهل والدي يقطنون الطرف القبلي من «أبنود» فيما يشبه القرية المستقلة يطلق عليها «النزيلة»، وهذا يعني أنهم نزلوا إلى هذا المكان، من مكان ما. وكان أهل أبنود ينظرون إليهم أيضًا كأنهم شيء مستقل عن القرية، وكان لقب أهل والدي هو «التروسة»، وحين بدأت التنقيب عن أصل هذه التسمية قالوا إن جدي السابع «عمران» وقف بساقية وقد قُطع ترسها الخشبي الثقيل في داخلها، وقد اجتمعت الرجال بالحبال والأكتف والأذرع لإخراج الترس من الساقية فعجزوا، وأثناء مروره صاح عمران في القوم فخرجوا من الساقية وتحلقوا من حوله ونزل هو ليقطعه ويضعه على كتفه بمفرده ويخرج به، وكانوا جُددًا بالمكان، ولأن الأمر أشبه بالمعجزة أطلقوا عليهم «التروسة»، وفي الحقيقة أن القصة مضحكة وخيالية بعض الشيء، وقد ظننت لفترة أنهم ربما كان من بينهم نجّارون يصنعون تروس السواقي، ولكني لم أجد، ولبعد الزمن عن اليوم فإنني اضطررت لتصديق هذه الواقعة التي لم يعترض عليها أحد أو يؤيدها أحد.

لست فرعونياً

ويقول الوالد:

إننا أصلاً مهاجرون من المدينة المنورة، وتصادف مجيئنا في زمن أحرق فيه «الفرنساوية» أبنود وأبادوها؛ فوجدنا المكان بلا أهل، وظلت أيضاً هذه المقولة أشبه باللغز إلى أن عثرت في كتاب «بونابرت في مصر» (يُرجع إليه) ما يؤيد -على الأقل- الجزء الأخير من الحكاية؛ وهو إحراق أبنود عن آخرها.

وفي الحقيقة فإن هذا تم مرتين، ولا أدري في أيهما جاءت قبيلتي، وهل شاركت في المعركة الثانية من عدمه، ولكن أبنود كانت قرية مقاومة، وفي حملة «ديزيه» سبح أبناؤها إلى المركب «فكتوريا» التي كانت راسية في النيل وسرقوا منها البارود ثم نقّبوها وأغرقوها أمام شاطئ القرية في النيل، وهربوا بالبارود ليضعوه في مكان مجاور للقرية أطلق عليه -فيما بعد- رسمياً اسم «البارود».

واليوم الذي أغرق فيه الأبنوديون السفينة فكتوريا، هو العيد القومي لمحافظة قنا الآن، وفي «بونابرت في مصر» انتقم الفرنسيون

انتقامًا رهيبًا من هذه القرية، وإن ظل أبناؤها يقاتلون من
مئذنة «المسجد العامري الكبير» في أبنود.

وفي طفولتي لاحظت آثار الحرائق على النخل المحترق، الذي
كان ما زال واقفًا، وحين سألت قال لي رجل كبير: هذه حرائق
الفرنساوية.

وطبعًا يحزنني جدًا فيما بعد اكتشاف أنني لست فرعونيًا
أصيلًا، بل إن معظم سكان القرية؛ بل سكان الصعيد - باستثناء
المسيحيين - مشكوك في أصالة مصريتهم؛ وإنما هم قبائل مهاجرة
من الجزيرة العربية، النصف حجازي والنصف يمني؛ ولذلك لا
زالت المعارك تدور بين قحطان وعدنان؛ استمرارًا للثأر القديم
حتى زمننا هذا.

«لبّة» أمي

أما أنا فلم أكن أعلم أن لي أهل أب، ولم يكن يربطني بهم أي نوع من الصلات في ذلك الوقت؛ فأهلي كلهم كانوا المرأتين: ست أبوها (جدتي)، وفاطمة قنديل (أمي)، وكنت نادرًا ما أرى أخي الأكبر «جلال» الذي كان يدرس في المعهد الديني في تلك الفترة، ويهرب منه كثيرًا في هجرات طويلة نحو السويس، مفضلًا العمل في سوقها عن الدراسة الأزهرية، وفي كل مرة له واقعة، كأن يبيع «لبّة» أمه الذهبية؛ ليركب بها القطار إلى السويس، تاركًا الدراسة التي لا يحبها، وكانت أمي دائمًا تنوح على أشياءها المفقودة، وكانت جدتي دائمًا تصرّها بأنه يومًا ما سيشتري لها الكثير غيرها، وسيعطيها ما هو أغلى من «لبّتها»، وفي الحقيقة فإنه لم يفعل ذلك أبدًا فيما بعد برغم علو المناصب، بل وربما لم يتذكرها.

الجنون العذب

وفي ليالي الشتاء القاسية، وتحت البُرْدَة الصوف الغنمي التي كنا نتدثر بها، كانت أُمِّي تخلق لنا الدفء الخاص بحكاياتها التي لا تنفد، والتي لا سبيل لحصر جمالها، والتي يحزنني أنني حينما كبرت وحاولت أن أسجلها كانت الذاكرة قد وهنت، وكانت الهموم قد أتت على مساحات خضراء شاسعة من تألق عقلها القديم، ووجدانها الذي كان يخلق الألوان والروائح والإيقاعات، وما زلت أذكر أطرافاً من قصص (نجلا في البلاد تجلى) و(بيض الحبل) و(ست الحسن والشاطر حسن)، وعشرات من القصص لا أدري أين سمعتها وكيف احتفظت بها ذاكرتها، ولكن لا شك أن هذا لعب دوراً مهماً في تحريك الخيال، وخلق عالماً مغايراً للعالم الذي نعيشه؛ بما فيه من قسوة وواقعية مضيئة، ولا شك أن ذلك جعلنا نحب ليل الشتاء، وكذلك تلك الأغنيات الفريدة التي كانت تدندن بها هي وست أبوها طوال اليوم، والتي حفظتها منذ وقت مبكر جداً، لعبت دوراً أيضاً في التكوين الأصلي، وعلمتني الانتقال بين العالمين: الواقعي والأسطوري، أما الأغنيات فقد استطعت أن أسجل بعضها بصوتها الجميل وجنونها العذب، على (الشرايط).

والدي محمود

حين انتقل والدي إلى تلك المناصب كمعلم بارز في المدينة للغة العربية وآدابها، وإمام مسجد كبير بها، والتف الناس حوله لأنه كان رجل علم على حق، وكانت عيناه لا تفارقان صفحات الكتب، وكشاعر مهم له دواوين مطبوعة، ثم كمأذون شرعي؛ أتعجب كثيراً لهول الرحلة التي قطعها، وخصوصيتها، وقدرته على المغامرة الفردية بلا ونس أو استشارة في ذلك الوقت.

ولكي نتبين ضخامة هذه التجربة وما تحمله من جسارة ووعي وقدرة على التحمل، واختراق المستقبل وبزوغ أشكال الطموح والطرق إلى تحقيقها؛ علينا أن نعود إلى «التروسة» وكيف كان محمود، وكيف صار؟

تكشيرة

كان والدي محمود أحد أربعة إخوة أبناء لجدي «يامنة» (آمنة)، والتي شهدتها في سنواتها الأخيرة امرأة قعيدة من هول السمنة، جذوعها تلامس ركبتها، لا تبسم، وتدعو بالويل والثبور على الأحفاد، أما جدي (أحمد) فلإني لم أره، ولكنهم يقولون في شهادة جماعية للقرية: إنه لم يُرَ مبتسمًا مرة واحدة طوال حياته في هذه القرية، وكانوا في السر يطلقون عليه لقب «غضب»، ومهما كانت المفارقة، ومهما ضحك الجميع؛ فإن عضلات وجهه كانت على ما يبدو قد ثبتت على التكشيرة، وورث أبي عنه نصف الصفة، فلم يضحك أمامنا يومًا، وإنما كان يمارس الضحك مع إخوانه ورفاقه في جلساتهم، وإذا تصادف ومَرَّ عليه وجه ابن من أبنائه كشط الضحكة بيده من على وجهه، وكانت له قدرة فائقة على تحويل وجهه من حال إلى حال.

الهروب إلى الكتاب

وأبنود أيضًا كان بها قدر لا بأس به من الإخوة المسيحيين يسكنون التلال المحيطة بـ «البركة» التي تتوسط القرية، أو «النزة» كما كانوا يطلقون عليها، ففي مواعيد الفيزان كان هذا المكان المنخفض الذي يتوسط أبنود يمتلئ حتى حافته بالماء الذي تتشكل على وجهه مساحات كبيرة من إفرازات خضراء تتماسك لتكوّن طبقة، وكنا نطلق على هذا اللون «خرة أم العجوز».

وكان المسيحيون، أو النصاري -كما كنا نطلق عليهم- لا يعملون بالزراعة؛ وإنما توارثوا النسيج والصباغة ومعاصر الزيوت القديمة جدًا، أو مطاحن الغلال، وكنت تجد معظمهم ذوي أيادٍ سوداء أو زرقاء - من الألوان- ومنذ يولد إلى أن يموت الرجل وهو يحمل هذه الألوان ويرحل بها.

وكنا نعرف -ونحن صغار- النصراني من المسلم من ألوان اليد، وكانت هناك طاحونة كبيرة يملكها نصراني يسمى «قلادة»، وحتى وقت متأخر كانت طاحونة قلادة موجودة ومهجورة، ومن غرائب الأمر أن يعمل الإخوة الأربعة: أبي وأعمامي في هذه الطاحونة؛ فمنهم من يزن الغلال،

ومنهم من يرمي بالغلال في قُمع الطاحونة، ومنهم من يستقبل الدقيق من المواسير القماشية أو الكتانية، ومنهم من يقبض، وكان الرجل -قلادة- يثق في الإخوة الأربعة ثقة كاملة، وكانوا هم شرفاء، ولم يتمرد على هذا العمل سوى محمود، الذي كان يقف على الميزان؛ فعلى ما يبدو كان ذا طبيعة خاصة، وطموح يخترق جدران طاحونة قلادة، فكان يهرب إلى كُتاب القرية الذي كان يديره رجل قال لي الوالد إنه كان عالمًا حقيقيًا، اسمه «الشيخ علي الكريتي»، وإنه لو كان الزمان معدولًا لكان يجب أن يكون هذا الرجل شيخًا للأزهر الشريف، ووجد الرجل في محمود ضالته، فصار يعطيه أجزاء كاملة من القرآن، فيأتي له بعد يوم واحد وقد حفظها عن ظهر قلب في السر بعيدًا عن كل أهل القرية، وكان جدي أحمد -الذي لم يُر مبتسمًا يومًا- يأتي إلى الطاحونة ويظل فيها، فلا يجد «محمود» الذي كان إخوته يدارون عليه ويسترون «مرضه»، فكان يتجه في صمت ووجوم نحو «الكُتاب» فيجد «محمود» بين الصبيان، فيجره من إحدى رجليه في دروب القرية حتى يلقي به داخل الطاحونة مرة أخرى، ولم يكن هناك من تعلم في قرينتنا -بصورة جدية- من قبل؛ لذا فجدي أحمد كان على حق في أن يعتبر أن الصياغة وضياع العمر هو خارج إطار العمل، الذي كانت توفره الطاحونة في ذلك الوقت، وكان جدي أحمد يعلم أن هناك عشرات الأفواه التي تنتظر اللقمة التي سوف يأتي بها محمود من طاحونة قلادة، ورغم ذلك لم يتوقف محمود عن الهروب إلى الشيخ علي الكريتي، ولم يتوقف الرجل -الذي لم يتسم في حياته- عن جرّه في شوارع القرية، وصار هذا من المشاهد المألوفة جدًا وبصورة يومية في قرينتنا.

تحفة

أذكر، وأنا في الثالثة أو الرابعة، أن كانت أمي تجلس على عتبة الباب الكبير، وأنا ألهو بتراب الدرب تحت ناظريها، ومر «محمد علي أبو طالب» وهو شخصية فريدة في قريتنا؛ فقد كان مُصرًا على ارتداء العقال والكوفية، وكأنه قادم للتو من الجزيرة العربية، وكان الرجل من أثرياء القرية ورموزها، بنى مدرسة وناديًا تصعد إليه بسلام رشيقة، وما زال موجودًا حتى الآن (تسعينيات القرن الماضي) وهو أهم تحفة معمارية في قريتنا، وكان رجلًا سمح الملامح، يحيطه جو روحاني، وينعكس ذلك على سلوك أهل القرية تجاهه؛ فقد كانوا يجلسونه تبجيلًا خاصًا، وكان ينشر من حوله عطره القادم من الجزيرة أيضًا، وكان في شخصيته أقرب إلى الروح منه إلى الجسد، وصاح بأمي: مبروك يا أم جلال أصبح زوجك قاضيًا في المدينة.

القطيعة

حتى هذا الوقت لم أكن قد رأيت أبي، فمنذ تعلم وهرب إلى المدينة وساعده رجل علم يُدعى «الشيخ محمد علي بدوي» في أن يلتحق بالمعهد الديني في قنّا، وقد لفت نظره نبوغ الصبي الذي هو والدي، فكانت رعايته له أقرب إلى التبني، وحين تخرّج والدي وعمل أستاذًا للغة العربية في المدرسة الإنجيلية بدأت علاقته بالقرية تفتّر، وعلاقته بأمي تصيبها بعض الاضطرابات، وعلى الرغم من أن والدتي كانت شديدة الجمال، بل ربما أجمل فتيات القرية؛ فإنه ربما أحس بالفارق الثقافي وفارق الوضع الاجتماعي بعد أن أصبح ما أصبح، فحدث نوع من القطيعة، وأخذ هو الولدين الكبيرين: جلال وعبدالرحيم ليعلمهما في المدينة، وترك لها بقيتنا. لم يكن والدي كريماً، ومن تجربته العصامية ومنافحته للظروف وارتطامه في رحلة البحث والصعود، تعلّم قسوة القلب إلى حد كبير، وفي المقابل عاشت المرأة أشبه بطيف منها إلى حقيقة إنسانية مؤكدة.

مأساة أمي

كانت والدي حين كان عمرها أحد عشر عامًا قد زُوِّجَت برجل كبير السن ذي مقام عال هو عمدة إحدى القرى المجاورة، وتحكي المرأة بمرارة وطرافة عن الفترة وتقول:

«كنت طفلة لا أعلم شيئًا، وسمعتهم يقولون بزواجي، وفي ليلة وضعوني في هودج سار بي طويلا مع أنغام الدفوف والمزامير وزغاريد النسوة، وأنا أضحك، لم يكن لدي في تلك الليلة سوى الضحك، فكأنني ذاهبة مع البنات لنلهو في مكان بعيد، أو أنني في بداية تعلم لعبة سوف أكتشفها حين تنتهي، فقد تعودنا أن تعلم البنات الكبيرات ألعابهن للصغيرات من أمثالنا.

كنت ساذجة أعيش في أحضان أبي وأمي، ولا أعمل بالبيت؛ فقد كان البيت مستريحًا ماديًا في عصر قنديل، ووجدت نفسي حين جاء الليل في منزل غريب وقرية غريبة، وانصرف الناس وغاب أهلي عن عيوني فانخرطت في بكاء طفولي وأصررت على العودة من حيث جيء بي، وأنا لا أفهم شيئًا، فكأنني اختُطفْتُ، احتضنتني النساء الكبيرات في هذا المساء، ونمت في حضن (حماتي) التي لم أكن أعلم أنها حماتي، ولم

أكن أدري أنني قد تزوجت فعلاً، ولم أكن أعلم ما الزواج؟! وفي الصباح بدأت النسوة يطمئنني، ويلاعبنني ويعطينني بعض الحلوى كي أهدأ، ثم قليلاً قليلاً بدأت النسوة يسمحن لي باللعب مع الفتيات الصغيرات أمام الدار.

كل هذا وأنا لا أدري من هو زوجي، ولم أره، ولكن كانت هناك مفارقة؛ فقد كنت حين ألعب أمام بيت أبي تقول لي الطفلات: «أبوكي جه» فأرمح إلى داخل الدار، وأصبحت في هذا المكان وأنا ألعب يقولون لي: «زوجك جه»، فأفعل مثل هذا الفعل وأرمح إلى داخل الدار!

ولم يكن في هذا الوقت قد نبتت لي أثداء، أو خرطني خراط البنات، كما يقولون؛ ولذا ظللت بمنأى عن الرجل لثلاث سنوات.

وبعد السنوات الثلاث وكانت (حماتي) قد هياتني لتلك اللحظة التي أصبح فيها زوجة، هاجمني الرجل بوحشية ففزعت الفزعة التي صاحبتني طوال حياتي، وظللت ساهرة وقد نام الرجل، ومع بصيص نور الفجر خرجت من الحجرة وقفزت جدار سور المنزل أجرى في دروب القرية، ودمي يلطخ سيقاني وثيابي، وتسلفت إلى بيت أبي قنديل وأنا واقعة بين رعين: رعب مَنْ هربت منهم، ورعب مَنْ هربت إليهم. ولم أجد مفراً من الدخول إلى عشة الفراخ الطينية ذات الفتحة الضيقة، وهناك بين الفروجات نمت نومًا عميقًا.

أطلت أُمي (ست أبوها) في الصباح داخل «البنيّة» لإخراج الدجاج وجمع البيض، فوجدتني راقدة، فلطمت خدودها وأيقظتني شبه

غائبة عن الوعي، وأحسست يومها أنني ارتكبت عارًا كبيرًا، ولكن غزارة النزيف ألقت بي إلى هوة مرض طويل، وأصبت بـ «الصفير»، أفهم الآن أنه كان بسبب الدماء التي نزفتها فاصفرَّ وجهي، وكنت أقرب إلى الموت.

ظللت ثلاثة شهور راقدة في الفراش، لا أدري بما يدور حولي، وبعناية ست أبوها بدأت شيئًا فشيئًا أسترد بعض الحياة، وفي أحد الصباحات حملني قنديل على ذراعيه وشق بي القرية أمام الجميع وذهب بي إلى زوجي يقدم الاعتذارات، والأسباب بأنني ما زلت صغيرة ولا أفهم شيئًا، وأنه يجب أن يغفر لنا!

ومنذ تلك اللحظة تمردت وأقسمت على ألا يحدث لي ما حدث، وكنت أتحول إلى نمرة شرسة إذا ما حاول الاقتراب مني.

أما بالنسبة لمقاومتي للنساء فأظن أنني قد ادعيثُ الجنون، ولم يكن ادعاءً؛ بل كان جنونًا حقيقيًا، وفي النهاية لم يجد الرجل مفرًا من تطليقي، وهكذا عدت للحياة التي أحب مرة أخرى.

ولم أكن أعلم أنني قد أصبحت مطلقة، ولم تحاول ست أبوها -أمي- أن تفهمني شيئًا مما حدث، وقد ظلت الكوابيس تهاجمني لفترات طويلة، ومازلت أعاني حتى الآن».

الزواج الثاني

هذا قبل أن يظهر أبوك ببضع سنوات، ويرسل مراسيله ويحاصر الحاج قنديل برجال القرية، فجلس الرجل معي ليفهمني أن البنت للزواج، وأن ما حدث كان خطأ، وأن الأمر ليس على تلك الصورة التي عشتها، وكيف أنه متزوج من أمي، وكيف أنهم سعداء، وأن كل نساء القرية متزوجات، وأشياء من هذا القبيل.

كان أبوك يكبرني بستة عشر عامًا، وكان حين رأيتَه يلبس جُبَّتَه وعمامته كرجل دين، وأوحى لي مظهره ببعض الأمان، على عكس الصورة التي صدمتني في الرجل السابق، ولكنني امتعشت؛ إذ إنه لم يكن جميلًا، وكان أنفه كبيرًا، وشفاهه غليظة، وكان يكبرني، لكنني كنت قد كبرت إلى حد ما. وهكذا تقبلت الأمر على مضض أيضًا، ولكن بشيء من التمرّس والإدراك، وهكذا تزوجنا ليأخذني إلى نجعهم في أطراف أبنود.

والدي.. يعيش لنفسه

كان نجع أبي -وما زال- يسمى «النزيلة»، ويعني اللفظ لأول وهلة أنهم ليسوا أبنوديين أصلاً، ولكنهم جماعة نزلت إلى ذلك الحي، أو إلى ذلك المكان وكونوا حيّهم الخاص وقريتهم الخاصة، وعينوا من كبرائهم مشايخ بلد، وشيوخ خفراء، ولم تكن بينهم فوارق اجتماعية جامحة، وكانوا جميعاً فقراء على وجه العموم؛ أي أنهم لم يأتوا بشيء معهم، وإنما حاولوا التأقلم مع المكان واشتروا الأراضي على مدخل أبنود، وصار هذا مكانهم، وكان والدي هو أول من تعلم منهم وخرج من هذه الدائرة المغلقة ليُكوّن واقعاً آخر ليس مستحدثاً على «النزيلة» فقط؛ وإنما على أبنود كلها.

أي أن الرجل علّم نفسه -بالطريقة التي ذكرنا من قبل- وذهب إلى المدينة وصار أشهر من جاء منها -بل وأشهر شخصية فيها، وبدأت مواهب الرجل تتفتح في مدينة قنا- فصار شاعرها، ورجل دينها الأول، وتصدّر المجالس، واستغرقت هذه الرحلة؛ رحلة القراءة والكتابة والتعلم والتعليم، حتى نسي أمي في بيت جدي قنديل، وأغلب الظن أنه اعتمد على شراء والدها، ثم جاء هذا الرجل ذو العقال والكوفية:

محمد عليّ أبو طالب؛ ليزف لأمي وأنا ألعب على تراب الدرب، نبأ نجاح والدي في مسابقة المأذونية ليزف إليها بشرى أن والدي أصبح قاضي المدينة، وهي التسمية التي كانت تطلق على المأذون الشرعي آنذاك، ولا أظن أن فاطمة قنديل يومها فهمت شيئاً أو أنها استقبلت النبأ ببشاشة؛ فلقد كان المنصب لوالدي، ووالدي كان يعيش لنفسه، وكانت تعلم أن ذلك لن يؤثر في كثير أو قليل في واقعها الخاص.

كان جدي قنديل حين يعود من السويس التي كان يقيم فيها يملأ البيت مائلاً وطعاماً وفاكهة، وكان شخصية رائعة بكل المقاييس، وأظن أن الكثير من صفاته هي التي انتقلت إلينا، فانا مثلاً كريم جداً على عكس أبي، وأظن أن هذا جاءني من عروقي القنديلية، وتربية الرجل في الصغر؛ فقد كان يبالغ في تدليلنا محاولاً أن يُنسي أمي واقعها الذي لم يكن يخفى عليه.

الصفاء الأسود!

في «النزيلة» كانت أمي قد انتقلت من واقعها الرتيب إلى واقع «النزيلة» الجاف القاسي الفقير متحجر القلوب، ولم يكن في مستطاعها أن تفعل فعلتها القديمة مرة أخرى للهروب من الواقع الجديد؛ فقد كانت جدتي لأمي شديدة البخل؛ لفقرها طبعًا، وكانت الحياة شبه جماعية، وأثار تميز أمي بالملابس التي يشتريها لها والدها حفيظة هذا الكوم الأسود من النسوة الحافيات، لابسات الأسمال السوداء؛ فكَرِهَتْ منذ أول لحظة -رغم تأمر الجميع على تغيير طباعها الطيبة- أن تتحول إلى امرأة قاسية أو امرأة تشبههن على الأقل. قالت لها إحدى عماتي: «جلبي يوم ما يصفى لك يبقى لون دي»، وأمسكت بطرحتها السوداء!

الخيرة

وظلت أُمي حتى كبرنا، وربما قبل أن ترحل بقليل، تتذكر مثل هذه العبارات كأنها قيلت بالأمس، ولكن لم يمنعها ذلك من أن تخترق بخل أبي وتصبح هي المستولة عنهن وعنهم جميعًا، وتقتطع من زادها في المدينة لكي ترسل إليهم بالمعونات، وتثور في وجوهنا غاضبة بعد أن أصبحت لنا مواردنا؛ لكي تنتزع منا المال في المواسم والمناسبات، وترسل به إليهم، وأصبحت فيما بعد راعيتهم الحقيقية، ليس من أجل أبي؛ ولكن لأنها شخصية جُبلت على الخير والرحمة، وانتمت إليهم انتماءها لزوجها، متناسية كل أفعالهم معها أثناء إقامتها بينهن.

ملاءتي شاهدي

فجأة مات قنديل.

وأذكر ست أبوها جدتي، حين عادت من السويس بعد دفنه، وهي تلطم خدودها بين النسوة والعويل والبكاء الحقيقي، وأنا غير متبيّن لما يحدث، وانتهى بذلك فصل كامل في حياة أمي؛ فلم يعد لها إلا البيت الكبير، وبضع قطع متناثرة من الأرض خارج أبنود. ووالدي في المدينة يثبّت أوضاعه المستقبلية.

ووجدت المرأتان -أمي وجدتي- نفسيهما وحيدتين في هذا العالم، مسئولتين عن خمسة أطفال، بخلاف الاثنين اللذين التحقا بالشيخ -والدي- في المدينة. وشحّت الأقوات أثناء الحرب العالمية الثانية، وإذا كانت القاهرة قد أحسّت بالأزمة؛ فعليك أن تتخيل تلك القرى البعيدة، الموغلة في البعد، والتي لا تصل إليها أيدي السلطات، والتي لا يسمع بها أحد؛ فإن الحياة كانت قاسية إلى أبعد الحدود عادة، فما بالك بوقت الحرب؟

ودخلت المواد التموينية إلى البطاقات، وقُنِّتْ هذه المواد الشحيحة؛ فقررت أمي أن تتاجر فيها من أجل إنقاذ الأرواح الخمسة التي تعولها،

ولأنها لم تكن امرأة بيع وشراء، ولم تكن لها أدنى خبرة بالحياة العملية خارج الدار؛ فإنها تعرضت لمآزق بالغلة العسر، وكادت تسجن مرات؛ فقد كانت تذهب إلى المدينة بالقطار وتأتي بصفيحة الزيت وأقماع السكر، وتعود بها في القطار وهي تخبئها تحت ملاءتها الصعيدية كأنها تغطي طفلًا، وتظل ترتعد حين يمر الكمساري أو المفتش، لتنزل بها في محطة أبنود، وتبيعها جزءًا جزءًا للناس؛ لتكسب بعض القروش التي تتيح لها إطعامنا.

وفي إحدى المرات انفلقت منها صفيحة الزيت في القطار، وظلت تخبئها بملاءتها التي غرقت زيتًا، وحين توقف القطار هربت بجلدها، وظلت هذه الملاءة الملطخة بالزيت منشورة على حبل (معلق) تشير إليه إذا تجاسر أحدنا ورفع ناظريه في وجهها، أو عاملها معاملة غليظة، أو نطق بكلمة نابية، وتقول: «هذه ملاءتي؛ شاهدي الوحيد على أنني أبقيت على حياتكم، وجعلت منكم هؤلاء الناس».

وحين انتقلت أُمي فيما بعد إلى المدينة، وحتى بعد أن تغير واقعها تمامًا، ظلت هذه الملاءة «المزيتة» معلقة على إحدى الشماعات حتى ماتت، تريها لأبي تارة، وتريها لنا تارة أخرى، وكانت أحد رموز فقرها المهمة على نضالها وشقاؤها من أجلنا، وبسبب معاملة الشيخ لنا ولها. كان لجوء أُمي للتعامل مع قسوة الحياة بهذه الطريقة الخارجة على تكوينها الخاص، هي دفاعها الوحيد ضد الموت، وضد أن تفنى هذه الأسرة التي شقيت في بنائها.

رقابة «يامنة»

إذن كانت لي أبنودان وليست أبنودًا واحدة: أبنود أمي، وهي أبنود الحقيقية، وأبنود أبي، وهي «نجع النزيلة» الذي يعيش فيه أهلي. لا أذكر أني أكلت اللحم مرة واحدة في بيت أمي.

كانت «يامنة» (آمنة) والدّة أبي، تجلس في الساحة التي تتوسط الدوّار التي تتخذ شكلًا دائريًا لتراقب جميع الأبواب وجميع الرجال، وتعلم كل ما يدخل وما يخرج من أبواب هذه الدّور، وتشكّل رقابة صارمة على النّجع بأكمله، وكانت دائمًا تتحسس طرف جلبابي لتعرف نوع القماش، وتحاول تقدير ثمنه لتقدر الدخل المادي لأمي في أبنود الأخرى.

ولا شك أنني كنت صغيرًا جدًّا، حين بدأت علاقتي بـ «النزيلة»؛ فأول ما أذكره هو جنازة عمي «علي»؛ بل ربما كان أول من علمني أن الناس تموت؛ فقد سبق موته موت جدي قنديل، وأذكر نعشه الفقير، والنعش في أبنود يسمى «الْكَرَب» وهو اسم مُوحٍ جدًّا، والواقع أن لغة «النزيلة» أفصح من لغة أبنود الحقيقية؛ مما يدل على أنهم نزلوا من الجزيرة العربية فعلًا، كما شرح لي أبي فيما بعد.

البِتَّاءُ

كانت للأبنوديين متعتان؛ ففي بيت جدتي كانت البئر والنخلات في الكرم الملحق بالبيت، وكان «الخَيْيز» والأقراص الخاصة بنا، وتنوع الأطعمة -على تواضعها- وتعلمت في البيت صعود النخل ونزول البئر، وتعلمت قفز السور العالي نحو جنينة علي غزالي المحملة بالرُّمَّان، كما ذكرتُ، وفي ليالي الشتاء كنا نفتش الديوان الذي في مدخل البيت، ونشعل «المنقد» ونشوي «خبائط» الذرة النيلية، ولا أظن أنني ذقت شيئاً مثل لذة طعم «الخبيطه» المشوية في تلك الشتاءات الفقيرة البعيدة، كما كانت أُمِّي وجدتي ست أبوها تحملان ترائلاً لا ينفد من الأقاصيص الأسطورية، التي لم أصادفها مرة أخرى في مكان آخر، وما زلت أذكر قصة «نجلا في البلاد تجلى» وقصة «بيض الحبل» عن رجل أكل بيض الحبل الذي يبيعه رجل للنساء العاقرات، فحبل وأنجب وتخلَّص من حمله في الزرع، وخطفت الحدأة فتاته الجميلة وطارت بها إلى عشاها في قلب نخلة، وظلت تخطف لها حُلِيَّ النساء والأشياء البراقة حتى جعلت منها بهجة للناظرين، وحين جاء الشاطر حسن ليسقي حصانه من سبيل الماء تحت النخلة، جفل الحصان

عدة مرات لانعكاس الذهب على سطح الماء، فنظر إلى أعلى فوجدها
شابة جميلة.. إلخ.

وهي قصة لم يستمع لها أحد غيرنا من قبل، وكذلك «نجلا..» وكان
الاسم غريبًا؛ فليس في قرينتنا من تحمله، وكانت تغني بصوت جميل
وشجي أغنياتٍ -أيضًا- لم أصادفها خلال رحلتي الطويلة لجمع الأدب
الشعبي فيما بعد، وكان المرأتين كانتا من عنقود خاص من البشر
تدليان من شجرة شُعر.

أما في الجانب الآخر؛ فقد كان النهر حين يفيض تلاصق مياهه جسر
«النزيلة». ومُتّع النهر لا تُحد؛ فنحن نسبح ونصيد ونلهو ونتبارى،
فتعلمت صيد السمك منذ وقت مبكر، وأصبحت أعرف نوع السمكة
التي تأكل في السنارة رغم طميّة الماء، وحين كنت أجوع بعد
السباحة أتسلق أية نخلة لأملأ سيالتي (جيبتي الجانبية) بلحًا، أملأ
به بطني، أو أصطاد سمكتي التي أشويها، وأشحد «بتاوتي» -وهي
من الذرة النيلية- لأغمس بها السمكة، فأشبع وأعود للهو.

بالنسبة للبتاو، وقد كان هو الخبز الوحيد في ذلك الوقت؛ فإنه
أثناء ري الحياض، كانت الأرض تزرع لموسمين: «الجيض» (القيض)،
و«الدميرة». أما القيض فكما هو واضح من الكلمة؛ هو القيض؛ أي
الصيف، وقد كانت ذرته النيلية بيضاء، قاسية، صلبة الغلاف، وكان
طعام أدنى طبقات الأمة، وأما الدميرة فكانت ذرتها صفراء وكانت
أهون قليلًا من البتاو «الجيض»، وكنا نأكله حين ترغد الحياة.

أحمد «سماعين» الحقيقي

شيء واحد إيجابي كبير كان في «النزيلة»؛ وهو ابن عمي «محمد مصطفى»، وهو صبي يتيم، كان والده أول من تُوفِّي من الإخوة الأربعة، وكان اسمه «مصطفى»، ويقال إنه كان رجلاً هادئاً بسيطاً طيباً أنجب محمداً هذا من «نؤارة» امرأة عمي، ومات، وتزوجت نؤارة بـ«موسى العبور»، و«العبور» تعني الخروف الصغير، وتركت نؤارة محمداً لدى جدي يامنة، وكان يقضي لها كل شيء، ولا ينال حمداً ولا شكراً، وكأي يتيم في الدنيا؛ فإن مواهب محمد مصطفى تفتحت في وقت مبكر، وكان أنموذجاً للإنسان الفالح؛ فإذا كنا نصطاد سمكة كان يصطاد خمساً، وبعد الظهر كان ينزل إلى حقول الناس ليقتلع منها «النجيلة» و«الدفرة» والنباتات الطفيلية، ويكوّم كومة كبيرة يذهب بها إلى السوق لبيعها بملّيمَيْن، يشترى بهما الطعمية التي كانت غرامه الوحيد، أو يشترى بطيخة، وكان يأكلها بقشرها، وحين نسأله يقول إن الرجل حين أخذ مني ثمنها لم يقل لي إن هذا ثمن ما بداخلها فقط. وكان يُرى أحياناً هائماً على وجهه، على الجسور في قباله الصيف المحرقة، ينوح كالنساء ويُلقي بالمرائي علناً، وكان يرثي نفسه في هذه المرathi، والغريب أن النسوة لم تكن

تتشاء من منه، وهنّ اللائي عِشْنَ على التشاؤم، وحين تعترض إحداهن عليه كان يقول: «أنا أعدّد على نفسي؛ فما بالكنّ أنتن؟!». وكان يعرف كيف يصطاد اليمام والحمام البري بـ «القلاب» (الفخ)، وكان صبوراً تملّ صبره، وتضطر في النهاية أن تتركه يمارس صبره الفريد، ويعود آخر النهار محمّلاً بالحمام الذي لم يكن يأكل غيره من اللحوم؛ فقد كان يكره بقية الطيور، ولا يأكل لحم الحيوانات. وحمل محمد مصطفى الهمّ صغيراً، لكنه كان قوياً جداً في مواجهة السنوات، وكان بالنسبة لي رمزاً وأ نموذجاً للبطل الذي يقاوم الأزمنة، وهو الذي أوحى لي فيما بعد بكتابة «أحمد سماعيل -سيرة إنسان». فهو محمد مصطفى هذا «الأحمد سماعيل»، ويعمل منذ بلغ أطراف الرجولة عاملاً في مناجم حميضات للفوسفات، في البحر الأحمر، مصدوراً عليلاً، أنجب جيشاً من الأبناء.

الرعي.. مدرستي الكبرى

في بيت جدتي -أيضاً- ست أبوها في أبنود تعلمت الرعي، وكان عليّ أن أستيقظ قبل الشمس في الشتاء البارد، وأن أسوق النعجتين العجفاوين لجدتي، وبعض الماعز لمسنات أخريات لا يملكن طفلاً يصلح للمرعى. وأعتبر أن تجربة الرعي في حياتي هي المدرسة الكبرى التي حصلت فيها كل الخبرات التي واجهت فيها الحياة فيما بعد؛ فلكي تصبح راعياً للأغنام عليك أن تتعلم اسم كل نبتة في الأرض وخصائصها ووظائفها؛ فقد تكون سامة فتفقدك ثروة العائلة، أو «مليئة» فتصاب النعجتان بالإسهال، وتفقدان الكثير من وزنيهما، عليك أن تعرف ما هو مفيد في الأرض، وما هو ليس بمفيد، ولماذا تاكل الأغنام تلك النبتة ولا تاكل الأخرى.

ويسلم الأطفال -بعضهم البعض- الخبرات بالنباتات والفصول، وبدأتُ أتعلم المواقيت بالظل، ومرور قطار الظهر وقطار العصر. وتعرّفت كذلك في تلك الفترة المبكرة جداً من حياتي، أنواع النباتات الطبية كـ«الدمسية» و«الغبيرة»، التي كانوا يستحمون بها إذا ما أصيبوا بالروماتيزم أو آلام المفاصل، وتلك النباتات التي تستعملها النسوة في البخور

أو فك الأسحار، أو إشعالها والمشي فوقها لتتخلص العاقر من عقرها.
واكتشفنا في ذلك الوقت المبكر المخدرات من ظهور النباتات البرية؛
كـ «شوك العقول»، وخلافه من «الداتورة البرّية» و«السكلان»، وكنا
نتعاطاها ونترنح على حواف قنوات المياه، أو نستلقي في ظل أشجار
السنت الشوكية الضخمة؛ كي ينقضي اليوم دون إحساس بعبء الوقت،
وكان الغروب يسرقنا أحياناً فنعود في الظلمة، وقد نفقد إحدى
النعجات، وينطلق الدرب بأكمله نساء ورجالاً وأطفالاً للبحث عنها
في حقول القرية الشاسعة.

الغناء بدلًا من الصراخ

في الرعي أيضًا بدأت أسمع لغناء السواقي والشواذيف والنوارج. ولكل نوع من هذه الأعمال نوع من الغناء، وكنت أعرف هؤلاء المغنين بالطبع؛ ففي الواقع أنهم لم يكونوا يغنون ليظهروا حلاوة أصواتهم، وإنما كانوا يشكون الحياة ويصرخون كي تسمعهم السماء، ويواجهون بالغناء الحياة القاسية والظروف العسيرة، كما أننا -نحن الأطفال- كنا نغني، وبالذات الفتيات اللاتي كن يشاركننا الرعي، وما زلت أذكر البنات وهن يغنين:

«البت جالت لابوها

جاك شوكة في ركبتك

كل البنات اتجوزت

وأنا قاعدة في خلقتك

البت قالت لابوها

جاك شوكة في قدمك

كل البنات اتجوزت

وانا بارعى في غنمك»..

وحين يمر القطار^(١) -وكانت قطارات البضاعة بنية اللون، عرباتها كثيرة وطولها لا ينتهي- كانت البنات تصدح بالغناء للوابور، وأذكر من ذلك:

«يا وابور

يا وابور

يا احمر يا دومي

لما صرخ الوابور

طوّرنِي من نومي»..

وبالفعل لم يكن لون الوابور أحمر ولا بُنيًّا، ولكنه في لون ثمرة «الدوم» الناضجة، و«طوّرنِي» أي أيقظني مفزوعة، أو كما تغنين:

«يا بابور يا بابور

يا احمر يا عدسي

لما صرخ البابور

طوّرنِي من نعسي»..

١ وسط معاناة الطفولة كان القطار مصدرَ بهجة كما يتذكّر الأبنودي:

كُنّا أطفالاً نرعى الأغنام في الغيطان المحصورة. كُنّا فقراء، جهلاء، تحت شمس متسلّطة، ووقتٍ لا حدودَ له ولا ضفاف، نسير حفاةً، ممزّق أقدامنا بقايا أعواد القمح أو «القور» (وهو البقايا الغليظة العادة كالسكاكين لأعواد الأذرة النيلية. كنا نقطع الوقت باللعب، ولكن الزمن الثقيل كان يظل دائماً ثقيلاً، بطيئاً. كانت بهجتنا الوحيدة هي مرور القطار: قطار الصبح، وقطار الظهر، وقطار المغرب. كان أهمها قطار الظهر، نجلس -بعد أن نعتفي به- لتناول غداءنا، أمّا الاحتفاء به فكان في هذا السبيل من الأغنيات التي نلاقيه بها، نجري وتسلق أحد «المزلقانات»، ندفعها بأقدامنا ذهاباً وجيئة، ونحن نغني له. ولأن قطارات البضاعة المازة بُنيّة اللون؛ فقد كُنّا نشبه لونها بلون «العدس أبو جبّة»؛ فهو بُنيّ مثلها، أو نشبه لونها بلون الدوم، فرمّا لم تكن غلك أو نرى غيرهما من الألوان البنيّة من حولنا، عدا جذوع النخل. أما القطار فقد كان -وربما لا يزال- اسمه «البابور».

آخر الليل - السابق.

اكتشاف الألوان

وهنا تبدأ أنت في اكتشاف الألوان؛ فإذا لم يكن لك لون بعد كالأحمر والأزرق والأخضر؛ فعليك أن تخلق اللون، وبالفعل فإن حبة العدس الناضجة بقشرتها التي لا هي بُنيّة ولا رمادية، ولا حمراء، تشكّل لونًا خاصًا ليس ببعيد عن لون قطار البضاعة، فتعلمت أنا أيضًا أن أخلق ألواني منذ تلك الفترة، وهم هناك لا يقولون أخضر أو أحمر، وإنما يقولون: «كرنبي» و«عنابي» و«برسيمي».. إلخ. وهذا الالتحام بالطبيعة لم نكن نخترعه، ولم يكن كلمة أو شعارًا كما نطالب به الآن؛ ولكننا كنا قد وقعنا في حباله وأصبحنا جزءًا منه، يكوننا ونكونه؛ ولذلك فإنهم حين يقولون إن الرعي كان دائمًا وظيفة الأنبياء؛ فإنهم على حق في ذلك الصفاء الذي يتحقق للتأمل وللسماع والاستيعاب والارتباط الشديد بالأرض، والتفكير في الكون والخلق والخالق، والاستسلام لأحلام اليقظة النوعية. كذلك فإن المرعى كان ميدانًا للعب والعمل، أما اللعب فكان يصاحبه الغناء دائمًا.

وإذا ما حاولت رصد أنواع اللعب التي كنا نتوارثها عن أطفال المرعى السابقين علينا؛ فإن كتابًا لن يكفي لحصرها وشرحها، ولكنها جميعًا تستعمل جغرافية المكان وأدواته.

«عَزَب» الأعمى

أما العمل فينقسم إلى نوعين في المواسم التي ليس بها محاصيل، تكون عناقيد «القرض» قد بدأت تنضج متدلية من أغصان السنط الشوكية، فتنقسم إلى مجموعات، كل ثلاثة مثلاً على شجرة، ولأننا لا نستطيع أن نتسلق هذه الأشجار التي ينبت بها شوك «السُّلاع»، وهو أكبر وأضخم من الإبرة، وليس معنا من الأدوات ما يسمح بجذب هذه العناقيد وفصلها عن فروعها؛ فكنا نلجأ للطوب نكومه أكواماً، ونظل لساعات نضرب به فروع الشجرة، وقبل المغيب بساعة نبدأ في جمع ما تساقط، وقد «تفشخ» إحدى الطوبات رأس أحد منا، فيسارع الآخرون لحشو الجرح بطمي الأرض حتى يتوقف النزيف، ويكون معنا جوال فارغ أو جوالان فنملؤهما بهذا «الجرض»، ونتعاون جميعاً ونحن عائدون -تسبقنا الغنمات التي تعرف جيّداً طريق الدار- في حمل هذا الجوال أو الجوالين ونذهب بهما مباشرة إلى عم «عَزَب» الأعمى، الذي كان يشتري جهد اليوم بمليمين، وقد لا يعطيهم لنا مالاً، وإنما يستبدلهم بالعسلية التي يبيعها والتي «يعف» عليها الذباب طوال اليوم. أما عَزَب فقد كان يبيع «قرضنا» لتجار الصناعة والدباغة، القادمين من المدينة؛ إذ إنه مادة مهمة جداً في دباغة الجلود وأشياء أخرى لم نكن نعرفها ونحن في مثل تلك السن.

قُفَّةٌ فارغة

أما النوع الثاني من العمل، فكان عقب المحاصيل، وفي أيام الحصاد، وكان هذا الوقت من العام سهل علينا المهام جدًّا؛ فيكفي أن نترك الأغنام سارحة في بقايا الحصاد، ونتفرغ لجمع سنابل القمح المتبقية خلف الحصادين، وكانت القرية تزرع في ذلك الوقت القمح والشعير والفل والحلبة والعدس والجلبان -وهو نبات مثل البازلاء له غراء لذيذة الطعم، ولكن كان يستخدم أصلًا علفًا للماشية- والكمون والكزبرة والشمر وحبّة البركة، وكلها أنواع من «البذار» أو النباتات الطبية، وكان كل طفل في هذا الفصل من العام يخرج بغنماته حاملًا قُفَّةً فارغة يجمع فيها أعواد تلك النباتات، وكنا أحيانًا نترك الأغنام في المرعى السداح مداح في بقايا الحصاد، لنسير خلف الجمال المحملة بهذه المحاصيل، ولأن حركة الجمل التي تشبه التثاؤب المستمر أو التمطي الدائم والجذر والمد؛ كانت تسمح بتكسير بعض أنواع النباتات التي تحملها؛ فكان يتساقط منها الكثير لنضعه في قُفَفِنَا، وهناك في البيت نعزل كل نوع عن الآخر، وفي نهاية الموسم تتكون لدينا أجراننا الخاصة التي نستطيع أن نبيعها في السوق بنفس السعر

الذي تُباع به محاصيل الأجران الكبيرة؛ فأثمان هذه المحصولات ثابتة، وكانت تُكال بـ«الربعة»؛ أي القدح، أو «النص»؛ أي القدحين، أو «الرفطاو»؛ أي أربعة أقداح، أو الكيلة؛ وهي ثمانية أقداح، أو المُد؛ وهو الكيلتان، وكل تلك الخبرات تتكدر لديك دون أن تدري، إنما هي داخلية في تفاصيل حياتك اليومية، ولا تدري متى تعلمتها، كذلك فإن للكيل غناءه أيضًا، وتستطيع أن تستمع إلى «هاشم الكيال» في السوق وهو يغني بدل أن يعد الأقداح؛ واحد، اثنان، ثلاثة؛ وإنما يضع مقابلًا غنائيًا لذلك؛ فيقول مثلًا:

«على الله يا وحداني

يا رب لم غيرك ثاني

الثالثة خلقتني لم تنساني

الرابعة أنت الدائم وأنا الفاني

ويا ناعسة ادفع خمسة

والساعة جاتني بتتولى

كل المراكب بتولي

يا عاشق النبي صلي»..

ويكون قد عدّ الثمانية «أقداح»؛ أي «الكيلة».

غناء السواقي

كل عمل هناك له ظل في الغناء، أو كل غناء هو ظل للعمل، فمن يحدو تحت الشادوف في غنائه «الهوبلية»، وهو غناء الشواديف، ويعتمد على «الهَب»؛ لثقل القعر الذي يتشكل من كتلة طينية ضخمة تحتاج إلى صرخة في أول الغناء؛ لكي يشد الكتلة الطينية، فيغطس الدلو في الماء، ثم تتولى الكتلة الطينية دفع الدلو، فيهدأ الغناء في الشطر الثاني، كأن يقول الرجل صارخًا في الشطر الأول:

«نجعك يا هلال»

وهادئًا في الشطر الثاني:

«كان هنا وشال»

103

ويقصد بنجع هلال أن الهلالين مرّوا من هنا ومكثوا فترة ثم رحلوا، ولكن الأهم هي كلمة «شال» التي تشير فيها الكتلة الطينية الدلو المحمل بالماء، فينطقها هادئًا؛ لأن غيره شال العبء عنه، كذلك غناء السواقي، فهو غناء لولبي دائري ينتهي مع نهاية الدائرة التي يلفها الصبي أو الرجل خلف بقرة الساقية، كأن يقول:

«مين حطني طيره

واحوم لفوقي

وانزل على المحبوب

وأبل الشوق»..

ويظل يحولها حتى يصل للنقطة من الدائرة التي بدأ من عندها

الغناء، ثم يكمل:

«مين حطني طيره

وريشها هندي

وانزل ع المحبوب

واجيبه عندي»..

«ومين حطني» بمعنى يا من جعلني، ولكنك تلاحظ في كل أغنيات

السواقي محاولة للطيران والهروب والخروج من أسر الدائرة الرتيبة

التي يظل فيها الصبي طوال النهار؛ بل كل هذه الحياة بتفاصيلها في

الخارج والداخل تشحنك طوال اليوم بنصوص الشعر وألحان الحياة

التي تعيشها القرية؛ فلا تملك إلا أن تجد نفسك ترددها في بواكير

الطفولة، وأنت لا تعلم متى حفظتها، كذلك فإن الأم والجدة في الدار

لا تكفان عن «العديد»، وهو فن المراثي العربي الخالد، وأنت الكلمة

من تعدد مناقب الميِّت والتحسر عليه، وبقدر ما تبتهج بأغنيات

الخارج بقدر ما تبتئس وتكتئب لأغنيات الدار، وتبدأ التفكير في الموت

وأنت لم تبدأ الحياة بعد، وقد كان بيت جدي قنديل -بعد رحيله

بالذات- مرتعاً لمثل هذه المراثي؛ فالمرأتان تعددان وهما تكنسان

تراب الدار بـ«الجرباحة»؛ وهي سباطة النخل بعد أن يزول عنها بلحها، فتتحول إلى مقشّة، وتعدّدان وهما تنقيان البذور من حبات الطين قبل طحنها، أو وهما تطحنانها بالرحى، أو.. إلخ. لذا فعلى البنت الصعيدية أن تترك لنا أغنيات العمل لنحفظها؛ فهي لن تدور خلف ساقية، ولن تشد شادوقًا، ولن تركب كرسي نورج، ولن تمشي خلف محراث، وتتفرغ لتعلم فن النساء الذي ينقسم إلى قسمين: شعر المراثي، وشعر المناسبات الفرحة، ولو أنه غناء حزين أيضًا يرتدي نفس ألحان المراثي، ففي نصوص «الحِنَّة» سوف تستيقظ اللغة لتصبح عربية خالصة أو فصحي خالصة، ولكنها تستعمل نفس أوزان المراثي الشعرية، فتغني المرأة في ليلة «الحِنَّة» تصف العروس وكأنها تستهل قصيدة جاهلية:

«شبهت رقبتها بنخلة في الصعيد

إذا هببت لرياح يزينها الجريد

شبهت رقبتها بنخلة في العُقب

إذا هببت لرياح يزينها الرطب»..

فهي تشبّه شَعْرَ الفتاة بجريد النخل في الرياح، وفي الثانية تشبّه صدرها بثمار النخل: الرطب. وقد يأتي الشعراء الشعبيون إلى أجران الغلال في الصيف، فيغنون أقاصيصهم وملاحمهم نظير قدح من الغلال، ونستمع نحن مجّانًا، ناهيك عن اللعب الليلي، وكله تصاحبه الأغنيات. إذن فحين تصبح في الخامسة من العمر في هذه القرية؛ تكون قد حُمِلت بمئات النصوص الشعرية لزوم الحياة، وبالطبع فقد كنت مثلهم لا أتخيل أنني سأغادر هذه القرية يومًا، فكان عليّ أن أتعلم أغنياتنا التي سوف تصاحبنا في الشباب والكهولة.

مقاومة الحزن

يبدو أن حياة الوالد في المدينة -قنا- كانت تتبلور أكثر فأكثر كي يصبح رجل المدينة.

وأذكر حين مات عمي علي قيل لي إن أباك قادم للتعزية، ولم أتمكن من رؤيته، ولم أكن قد رأيته حتى الآن، وكان ينزل القرية في المناسبات الكبيرة، فيعطل أهله أعمالهم ليتفرغوا لاستقباله.

في هذا الوقت لم أكن أهتم بأن أراه؛ فلقد تربيت بين أحضان جدتي ووالدتي، وكان حزنهما الخاص يغلطني بغلالة تحمل الرفض لذلك الرجل الذي أورثهما حزنهما الدائم؛ الذي تقاومانه بالغناء وحديث المساء.

نمنمة

ذهبت إلى مدرسة القرية فترة وجيزة جدًا، ويبدو أنه كان نهاية عام دراسي، وكان الرجل في فترة الغداء يأتي بخبز وجبن في قفصين متقابلين على ظهر حمار صغير.

وكانت المدرسة تقع تحت النادي الذي بناه الشيخ محمد أبو طالب، لكنني أذكر أيضًا شهر رمضان وانتظارنا لأذان المغرب، حيث كنا نجلس في فناء هذا النادي نبيع ونشتري اللعب التي يصنعها بعضنا، وكانت العملة هي «نقى البلح» -النواة- ولم يكن هناك راديو أو تليفزيون، وكان المسجد المجاور بلا مثذنة، وصوت عم رفاعي المؤذن كان ضعيفًا لا يُسمع من على بعد عشرة أمتار؛ فما بالك بقرية بأكملها، فكان حين يؤذن ننطلق في دروب القرية بادئين بالأطراف، ثم مخترقين للعمق، نشدو وبصوت مرتفع: «افطر يا صايم ع الكعك العايم»، ولم يكن هناك كعك ولم يكن هناك سمن كي يعوم هذا الكعك!

وأذكر واقعة فريدة لعم الشيخ رفاعي؛ فقد كان هذا الرجل خوافًا بصورة لم يسبقه إليها أحد، وكان يخشى الكلاب والعفاريت! وبالفعل كانت الكلاب تسكت عن كل الرجال لتطارده هو شخصيًا،

ولخوفه من العفاريت كان يكتفي بأذان الظهر والعصر والمغرب إن تجاسر، وعلى القرية أن تحل مشكلتها في موضوع أذان العشاء والفجر. وكنا ندفع له أجره غلاً؛ فلم تكن لدينا أموال، وقررت القرية يومًا أن تدفع له نصف ما تعطيه، نصف ما هو مقرر له، على أساس أنه يؤذن نصف المدة، وكان يومًا.

وقد كنت أراه دائمًا يدخل بيت جدتي ست أبوها، يجلس خلف الباب ينمّم، فتقول جدتي إن الرجل لا يقرأ قرآنًا، وإنما يخدعنا بنممة، وكانت تشك في أنه يحفظ القرآن أصلًا، لولا أنني فوجئت في العام الماضي (١٩٩٦) حين زرت القرية وبعد أن توفي الشيخ رفاعي بزمان طويل بابنه إماما للمسجد وشيخًا وقورًا، وهذا يعني أنه حفظ القرآن، وأن أباه كان يحفظه، ودفعه إلى أن يحتل نفس الوظيفة التي فقدتها بموته.

الهروب

هكذا سارت الحياة في أبنود قبل أن يقرر الشيخ أن يعود بالأسرة من القرية إلى المدينة.

ولم تذهب أمي معنا، واحتفظت بفاطمة -الابنة الوحيدة- معها في القرية، وكنا نحن في ذلك الوقت ستة أولاد، كان أكبرنا الشيخ جلال، الطالب الأزهري، دائم الهروب إلى السويس، يخلع العمامة والجبّة، ويذهب ليجر عربة خضار في «المبيع»، يبيع البطيخ والكرنب لـ«الجريك» والإنجليز وأهالي المدينة، كما يفعل كل أبناء قريته المهاجرون، وكانت رغبته في ذلك لا تقاوم، يعودون به إلى المعهد الديني، فينتظر فترة ثم يختطف أي شيء ليبيعه ويدبر ثمن التذكرة ليعاود فعلته، ومن عجيب الأمر أنه كان ينجح بتفوق، وأصبح فيما بعد شاعرًا كأبيه، وإن كان قد سجن نفسه في قوالب الشعر القديمة التي تعلّمها في المعهد الديني وفي كلية اللغة العربية فيما بعد.

الأخ الراعي

تولى عبدالرحيم -الأخ الثاني بعد الشيخ جلال- تدبير أمورنا، وكان فتى رحيماً رقيقاً، حلو التقاطيع، مهتماً لأن يدرس الطب، ولكن الموت اختطفه فجأة، وكان هو الذي رعانا في غياب الأم، وكان أمّاً حقيقية، يشرف على طعامنا وأمورنا اليومية، برقة النساء وشهامة الكرماء. وكان هناك عبدالفتاح، الأكبر مني بعامين، وكنا نشكل خلية من «الزنابير» -الدبابير- في ذلك المنزل الذي اكتراه لنا الشيخ الأبنودي الذي كنا نراه قليلاً أيضاً.

لا أدري متى جاءت الأم، لكنني أذكر أنه فور مجيئها انتقلنا إلى بيت آخر في حي الأشراف؛ بيت كبير مكون من ثلاثة أدوار ببلكونات ومشربيات، وكان بيتًا ضخمًا، قضينا فيه معظم سنوات الطفولة، ولبست الطربوش لأول مرة لأذهب إلى المدرسة الابتدائية، قبل أن يُلغى لبس الطربوش. ثم انتقلت إلى مدرسة سيدي عبدالرحيم الابتدائية، وبدأت مواهبي في اللغة العربية تتضح منذ الثانية الابتدائية: خطيب المدرسة المفوّه. وكانت لي نشاطات مسرحية، من عجيب الأمر أني كنت أقرأ كتاب المطالعة فأحفظه وأذهب إلى المدرسة من دونه!، وكان المدرس حين ينتهي من قراءة الدرس يسألني أن أقرأه فكنت أقرأه من الذاكرة. وقد تلقّيت -أو قد نلت- بعض الجوائز^(١) نظير تلك النشاطات، وهي جوائز زهيدة القيمة، ولكنها كانت تعني بالنسبة لي أني مختلف أو متميز عن الجميع في اللغة العربية على الأقل. وخلال كل سنوات الابتدائية لم يختلف برنامجي الصيفي في الذهاب إلى أبنود والعمل في الحصاد، وجني القطن وتدبير بعض المال، وحفظ الأغنيات و..

١ يحكي الأبنودي عن جالزتين، إحداهما مضحكة:

وأنا في الصف الثاني الابتدائي «رزعت» خطبة بمناسبة عيد العلم، وأعطوني جائزة: حمالة بنطلون بلاستيك، وكُنّا أيامها نلبس البنطلون الشورت، وحتى الآن أمارس الرعب من النظر إلى ركبتني، ولم تتحلم أكثر من يومين وتقطعت من كل جانب ورميتها. أمّا الهدية الثانية فكانت للمتفوقين في المرحلة الثانوية، وهي كتاب «آثار الحرية» للرفيق كرافيتشينكو، وزّعته علينا المخابرات المركزية الأمريكية، فكانوا يمزّون علينا ليفسدوا رؤوس الطلبة وينفروهم من الاتحاد السوفيتي، ويجعلوهم يكرهونهم، ولقد قرأت الكتاب ووقف شعر رأسي وظل هاجسي يطاردني أن أعرف كل ما حدث حتي اضطررت إلى قراءة كل التاريخ الروسي، وأفادني الكتاب بصورة عكسية، وقرأت لـ «تولستوي»، «ديستوفسكي»، «تروجيف»، و«جوركي»، وكان الفضل في عشقي لهم هو البحث عن مصداقية لكتاب المخابرات المركزية. وهكذا أنقذت نفسي على عكس الكثير من الطلبة. مجلة الإذاعة والتلفزيون- عفاف علي ١٧ يوليو ٢٠١٠.

اكتشاف الشعر

وهكذا انتقلت إلى المدرسة الثانوية لأجاور الشاعر الراحل أمل دنقل، وقد كنا أصدقاء من قبل؛ لأنه من قرية القلعة التابعة لقرية قفط: القرية التالية لقريتي جنوبًا، وفي المدرسة الثانوية بدأنا نتألف في شكل مجموعة تضميني وأمل دنقل وأبو الوفا القاضي، وقد كان شاعر عامية صمت فجأة، ولكنه كان رئيس فريق التمثيل في قنا الثانوية، حيث قدمنا مسرحيات مهمة كـ «أوديب» وغيرها. ثم حدثت فجأة حرب ١٩٥٦ واندفعنا جميعًا للانخراط في سلك المقاومة الشعبية وغيرها، وتدربنا على السلاح، ولكنهم لم يعطونا الفرصة كما كنا نأمل للذهاب إلى الجبهة؛ فاضطررنا إلى كتابة الشعر. وتعتبر معركة ٥٦ هي البداية، أو هي المحرك الأساسي لأمل دنقل، ولي، للاتجاه نحو اكتشاف الشعر.

ومن الأغنيات التي كتبها في ذلك الوقت صلاح جاهين وعبدالله شمس الدين، بدأتُ ألفت بأذني نحو أغنية الراديو، ولم يكن في بيت الشيخ راديو، ولم يسمح بذلك إلا بعد ذلك بفترة طويلة حين عينت في محكمة قنا موظفًا واشترت راديو بالتقسيط.

وسرعان ما انتهت الحرب لتنطوي هذه الأغنيات وتتوارى، لتخرج علينا الأغنيات العاطفية مرة أخرى. وكنت قد التفتُّ فعلاً للأغنية «الرسميّة»، وبدأت أعقد المقارنات -دون قصد- بينها وبين أغنيات أبود، وأحلم بمساحة في هذا الراديو لتلك الأغنيات الأصيلة والحقيقية التي تعبّر عن حياة الناس.

«حنّا» علمني منهجي

كنا نقيم حفلًا في عيد الأم، وكنت قد أحببت أن «أسرق الجمهور» من بقية الشعراء، وقام أمل دنقل ليلقي قصيدة عن أمه مصر، ومصطفى الضمراني ليلقي قصيدة من نوع «أقبل الصبح وغرّد الطير»، وكل تلك القصائد التي تبدأ بهذه الصيغ المحفوظة.

وأطللت على الناس بقصيدة من الشعر الحلمنتيشي، التي أغرقت الجمهور في الضحك في هذه المناسبة الوقورة^(١)! وبعد انتهاء الحفل صحبني مدرس اللغة الفرنسية، وهو الأستاذ توفيق حنّا، الناقد المعروف وعاشق القرية، إلى القنطرة التي تعبر الترعة التي تحفر حديثًا أمام مسجد سيدي عبدالرحيم القنائي ليريني شقاء العمال وغلبهم من أجل الحصول على لقمة خبز،

(١) - أما تفاصيل هذه الصورة التي يرسمها الأبنودي ولا تفارق خياله لطرافتها - وهو طالب في المرحلة الثانوية: كان عيد الأم شيئًا جديدًا، وكنا نحاول أن نكتب شعرا أنا وأمل دنقل ومصطفى الضمراني، وقيدنا أسماءنا، وكان حفلًا رهيبًا في فناء مدرسة قنا الثانوية، ومساحته كانت شاسعة، ووقف مصطفى الضمراني وألقى قصيدة عن الأم من نوع: «غرد الطير وأقبل الصبح»، وصفق له الناس، ثم وقف أمل دنقل ونحن في باكورة الشباب والشعر أيضا، وأنشد قصيدة عن الأم التي هي «مصر»، بتعاليه المعروف وثقته الكبيرة فيما يقول، وصفق له الناس أيضا، ثم وقفت وكل الناس يعرفون أنني ابن الشيخ الأبنودي، فإذا بي مهشما اللغة، أقول قصيدة حلمنتيشية تقول: «أهدى إليك تحية بنشاطا، يا من بها فرح الفؤاد وظاطا، أعلنت حريك على الطيخ هزمته وغدا الحديد بساعديك بطاطا، مزقت ثوب الخبز حتى لم يعد يقوى على إصلاحه خياطا»، لاحظ - فإذا بالجماهير تسقط من على الكراسي، والمناسبة تتحول إلى شيء عجيب، ثم جاء بعدنا أساتذة اللغة العربية ليتكلموا، وإذا بالجماهير تنفجر من الضحك، حيث أنني أفسدت أول حفلة عيد أم تقام في مدرسة قنا الثانوية» - الإذاعة - عفاف علي - السابق.

وكيف أني أضيع موهبة كتلك في الهذر والكلام الفارغ، وإذ به يفاجأ بأنني ناديت عليهم بالاسم، واحتضنوني بطينهم، وتعجب أن قلت له إن معظمهم بلدياتي، بل إن فيهم من يمت لي بصلة قرابة.. فتأثر تأثرًا شديدًا وقال لي: هؤلاء هم من يجب أن تحملهم في شعرك وتدافع عنهم، فأنت شاعر موهوب وتستطيع أن تلعب دورًا مهمًا في حياة هؤلاء.

كان الرجل يسكن في لوكاندة «الجبلاوي» في منتصف المدينة، وبين مشوارتي الذهاب والعودة، علمني ما أصبح فيما بعد منهجًا أدبيًا صرت عليه في معظم مسيرتي الشعرية.

ميلاد جيلي

كانت حرب ١٩٥٦ بمثابة فترة التحول الكبيرة في معظم أبناء جيلي، فمنذ خطب عبدالناصر مؤمماً القنال، ومنذ أعلنت فرنسا وإنجلترا وإسرائيل الحرب على مصر، وحتى الإنذار الروسي، كان هذا بمثابة دخول مصر في عصر سياسي ووطني جديد، وأيقظتنا خطبة عبدالناصر في الأزهر: سنحارب.. سنحارب.

وأعتبر أن هذا هو بداية عصر الثورة وليس عام ٥٢، وهرولنا نبحت في كتب تاريخ مصر، ونفتش عن الإجابات لكل الأسئلة التي أيقظنا عليها هذا العدوان المباغت.

ويعتبر هذا العام -١٩٥٦- ميلاداً حقيقياً لجيلي بأكمله؛ فلقد لجأ الشباب إلى الفرشاة والقلم، يكتبون الخطب النارية، والأشعار المباشرة، واللوحات التي تعبّر عن المقاومة في بور سعيد.

وامتلأت مدن مصر بهذه اللوحات وحفظ الناس كل أغاني تلك المرحلة، وبالذات أغنيات صلاح جاهين، ثم بعد ذلك وحين أصدر «موال عشان القنال» كانت الناس قد حفظت كل هذه الأغنيات من خلال الراديو.

بداية الطريق

وقد بدأت علاقتنا بالكتاب اللامدرسي، ربما لأول مرة، فسارعنا لقراءة كل ما استطعنا أن نحصل عليه من كتب، وكنا نسلمها أحدها للآخر، وكأننا وضعنا أقدامنا على بداية الطريق الذي يؤدي إلى أن تصبح أديبًا.

مقالان للأبنودي لم ينشرا.

على الإعلام أن يغلق بوتيكااته الخاصة

رسالة إلى قلبي المتعب من قلب مصر قلب الأمة العربية «جيش مصر»
- هذا مقال أملاه عليّ عبدالرحمن الأبنودي خلال فترة مرضه
التي قضاها في مستشفى «قصر العيني» ١٩٩٩، ينتقد فيه الإعلام
المصري في ذروة سيطرته في عهد الوزير صفوت الشريف، ولم يُنشر
هذا المقال في حينه، إضافة إلى مقال آخر يحمل تقديره للقوات
المسلحة.

يقول في مقاله الأول:

«أهل الإعلام، مازالوا مصنّفين على الطريقة الستيناتيّة بين أهل يسار وأهل يمين، ورجال المخابرات القدامى مازالوا يحملون تحت أباطهم التقارير، يشيرون إليهم بأصابع الاتهام، فيُنْفى أهم القادرين على العطاء من شاشات الإعلام، حتى اضمحلت هذه الإمكانية الضخمة وتُركت سلعةً في أيدي بعض النسوة اللاتي هن أنموذج رائع للقدوة والأسوة، يتحكمن في وعي الأمة المصرية العظيمة التي فتحت أبواب المعرفة والنور قديمًا للعالم بأسرها، من هنا الفساد، ومن هنا أصابع حراس البلاد! وهناك من يأكلها «والعة». وبين كل هؤلاء أصبحت حقوق الأمة ضائعة، ومازال الإعلام الرسمي يحاول ألاّ يصبح جيشًا إعلاميًا حقيقيًا ندعو لمصر العربية كي نستعيد مكانتها التاريخية القديمة. فكرة العروبة التي على ما يبدو نسيها الإعلام المصري تمامًا.

وعلى الإعلام أن يغلق بوتيكااته الخاصة، أو يزاوج بين المصالح الخاصة وأهداف مصر القومية، التي يبدو أنها انسحبت تمامًا من دوائر الضوء الإعلامية الرسمية، ولم تعد تتخلق حولها، أو تلقي الضوء عليها سوى بعض الأقلام القليلة من مفكرين مهمين مهتمين بهموم هذا البلد الذي يعبث به إعلامهم عبثًا كبيرًا.

إن الإعلام العربي يدفع لنا مبالغ كبيرة «نستحقها»، ويقيم أداءنا بصورة تفيض احترامًا وتقديرًا، وينقلنا على حسابه في درجات الطائرات الأولى لنقيم في أوتيلات الدرجة الأولى أيضًا، وينعمنا ويدلّلنا

من أجل أن نرتبط به؛ فماذا يفعل إعلامنا المصري في مثل هذه الأمور؟ الذي يحس بالانتصار كلما سلبنا حقوقنا، وسلب العرب - والمقربين بالذات - ليس أجورهم فقط؛ بل ما جاءت به جيوبهم تحت دعوى أن مصر تعطيهم الغطاء الإعلامي والدعائي، دون أن نعرف هل تقبض الخزانة المصرية هذه الأموال أم أنها تذهب إلى جيب عبدالرحمن الأبنودي مثلاً؟! إعلامنا هذا الذي يحشو قنواته التي لا ضفاف لها ولا منبع لها ولا مصب، والتي لا طعم لمائها ولا وظيفة سوى إفساد تربة الشعب المصري الفكرية؛ بل والانتقال بالفساد إلى حقول الأمة العربية، التي مازالت تنظر إلى مصر على أنها الرائدة حتى في الفساد، وكأننا سوف نصدق ما يبثه لنا أصحاب المصالح حول إنجازاتهم العبقرية، التي تلجم كل من يتناول على ولوج القرن الواحد والعشرين الذي سوف نكون ملوكه بما أن أهل الهيمنة سيظلون في مواقعهم طوال القرن الواحد والعشرين والثاني والعشرين والثلاثين!

إن السلطة مرض يستشري ولا يرى المتسلط لتسلطه من نهاية؛ وإنما يصبح الفساد هو الدخان الذي يعمي العيون ويشتت الرؤى، «ويدل دل رجليه» بينما من كان قويًا يتراجع مستترًا بتصريحاته وإنجازاته التي لا تخص غيره لكي يصبح الضعيف قويًا، والقوي ضعيفًا، والمسألة لا تتعلق بحجم البلاد ولكن بعمق أبعاد الفساد. إن سياسة إخفاء الحقائق تجعلنا غير قادرين؛ بل ومكبلين عن الرد على هؤلاء الذين يتناولون على مصر قيادة أو شعبًا، ثم

إن هناك أبو «العُزَيْف»، وأم «العُزَيْف»، مادامت الأمور سالكة في المحيط الشخصي، فلتسقط مصر وليسقط معها فكرها وإعلامها وحتى رجولتها لنصبح بوتيكًا أو كباريها وسط نيران الأتون الذي يلتهم العالم العربي».

رسالة لقلبي المتعب من قلب مصر النابض

وهذا مقال آخر، ولكن كتبه الأبنودي بخط يده وأودعه إنيّاي حين أعطاني كراسة بها بعض رسومات له، من إهداء منى عبدالعظيم وجورج البهجوري، وبعض كتابات أخرى غير مكتملة كقوله:

«من شكل وفيه عمك اللي داس

على الميراث

تقويسة الغل في ظهر الديب

ويبتسم وكأنه أحبّ حبيب».

وكتب الأبنودي أيضًا:

«يحك ضميره في الحيوط والجماد

يُنْفُضُ عن الجلد الحقير القُراد

ونص ذل

ونص»

وأعاد كتابة هذه السطور مرة أخرى بقوله:

«يحك ضميره في الحيطان

ويبتسم بعيون لثيمة.. الكره والسخرية.

صفرا ترش»

أما مقال الأبنودي فكان تحية للجيش الذي طالما بادلته حبًا بحب وتقديرًا بتقدير، وجعل له عنوان «أزهار من صلصال!» جاء فيه: «هي مطبوعة اللافتة الصغيرة أيضًا (نتمنى لسيادتكم عاجل الشفاء) لكنها جاءت إليّ تسعى من مكان عزيز؛ من أسرة إدارة الشئون المعنوية للقوات المسلحة، تحمل إمضاء دكتور لواء أركان حرب سمير فرج مدير إدارة الشئون المعنوية؛ أي أنها كانت رسالة لقلبي المتعب من قلب مصر النابض، بل من قلب الأمة العربية كلها (جيش مصر). هذه السلة -وتوابعها- لا تحس أن جمالها وتناسقها جاء عفو الخاطر؛ وإنما تتأكد أن ثمة عينًا فاحصة وذوقًا عاليًا تحكّمًا في الانتقاء؛ إذ تحمل زهورًا من التي تجف وتظل في بيتك لعام أو أكثر تؤدي رسالتها الجمالية، وتدعوك للحفاظ الدائم على الفازة الفنية التي غُرست فيها هذه الفروع الميدانية ذات الزهور، التي تتخذ شكل رؤوس الحيوان: الزراف والفرس، والطيّرة؛ كاليمامة والهدد، وهي زهور طبيعية أنبتها النبات فلا هي من صلصال ولا حص.

هذا هو د. سمير فرج و (د) هذه من عندي؛ فقد نال درجة الدكتوراة هذا العام، وفي زحمة احتفالات مصر باليوبيل الفضي لأكتوبر لم نجد الوقت لتوجيه التحية وآيات المباركة له، هذا الرجل العسكري الصارم كالسيف، الرقيق كحد الورد.

مع السّلة أرسل علبة حلوى، لولا دخول شهر رمضان المعظم لنفدت في دقائق، ومازالت تسترني وأقدم منها لأصدقاء وزائري ما بعد الإفطار. أحمل له -ومازلت- محبته وتشجيعه لي في حفل تحرير سيناء

والذي أقمناه -الفنانة العظيمة ماجدة الرومي وأنا- أمام السيد
رئيس الجمهورية وقرينته على مسرح الجلاء، وحقق نجاحًا ملحوظًا،
ولقد ظل يلاحقني تليفونيًا يشجعني على كتابة القصيدة حتى تمت
كتابتها وأديتها على خير وجه وحقق المرجو منها».

حكمة الأبنودي^(١)

- لم أعد ألومني حين أضبطني متلبسًا بالحق على أبي؛ بل وعلى آباء معظم أبناء جيلي، هؤلاء الطيبون القادمون من زمن يختلف لونًا وطعمًا ورائحة!!

- كان والدي الشيخ منضبطًا كالسكر المعتدل، منفلتًا من السكر «المتكرر»، يحاول أن يجعل من يومه صورة مطابقة لأمره، وأي اختلاف بينهما يدخل من وجهة نظره في «دائرة الشذوذ»، كفانا الله شرها. أَلِف «الألفيّة» في النحو، و«البُرْدَة» في مدح الرسول، متبَعًا خطى أجداده ليُطابق بين صورتي الخلف والسلف، حفظ وردد نفس الأدعية تَوَسَّلًا وَتَيَمَّنًا. أمَّ الناس في الصلاة في صورة لا تختلف من قريب أو بعيد عن شيخ ربما يحمل نفس الاسم، كان يصلي في نفس المكان ويبتهل بنفس الصوت من قرن مضى أو عشرة! تركّز كل اجتهاده في سعيه إلى اكتساب ما يجعل منه في النهاية النسخة المعتادة بأمانة من صورة أنموذج تناسلت منه ملايين النسخ المتشابهة! كان معلمًا يدرس العربية، وكان يضرب بالحذاء -أحيانًا- من يهمل تجويد خطه، كان

١- هذه هي خلاصة آراء وأفكار الأبنودي خلال مسيرة حياته.

لا يؤمن بقداسة اللغة العربية فحسب؛ بل وباحترام وتبجيل وتوقير خطها العربي والركوع في محرابه بصفته الطريق الممهد الذي يقود إلى الجنة؛ فقد كتب به القرآن الكريم!! كان يعتبر الخروج عن قواعد الخط وقوانينه -بأنواعه المختلفة- شذوذاً! كان الوالد مأذوناً ويحرص على ترديد نفس النص في كل زيجة، ونفس النص في كل طلاق، لا يزيد ولا ينقص حرفاً، ويعتبر أية مخالفة حتى لطبقات الصوت -أثناء قراءة بيانات الاتصال والانفصال- شذوذاً! لم يفكر -ولو مرة واحدة- في تغيير لفة العمامة أو تفصيلة الجبة والقفطان، كان لا يغير أصدقاءه؛ بل كان يؤمن بأن الله خلقهم ليكونوا أصدقاء، وزرعهم من حوله وثبتهم في الأرض يراقب كل منهم رحيل الآخر بجنان ثابت، وإيمان قوي بأن الخالق يسترد ودائعه وديعة تلو الأخرى، وأن محاولة التفكير في تحاشي دورك في الطابور أو إعادة الترتيب، مجرد التفكير في ذلك أو التردد في اقتحام العتبة الفاصلة بين الموت والحياة هو بالتأكيد نوع من الشذوذ! قوانين ثابتة محكمة نبتت من حولنا كجدران السجون، مجرد محاولة تسلقها أو مغادرتها شذوذ، إنها نفس الجدران ذاتها التي سوف نورثها لأبنائنا من بعدنا، السجن الخالد المبارك، نهبه لهم، ونعلمهم وسائل التواؤم داخله، ونحذرهم من أن يحسوا بعدم الرضا والسعادة والاكتفاء أو الرغبة في الحرية؛ بل علينا أن نقنعهم جيئاً بأن الخروج من هذا السجن الآمن، شيء غريب وشاذ!

- هذا ما فعله والدي بي، وما فعله آباء أصدقائي وأبناء جيلي، كان شعارهم الأكثر ارتفاعاً وأوضح كتابة هو: «الخروج عن المألوف -أيا

كان - شذوذ! لكننا -ومنذ وقت مبكر- بدأنا نرى أيامها من يثور على هذه القوانين في سرية تامة.

- لا غموض في علاقات الحب البسيطة العميقة، وزاد الذكريات القديمة والحديثة: الزوجة، الأبناء، الأب، الطفولة والأيام الخضراء، الدوران خلف الساقية، النزول إلى قاع بئر، صعود نخلة تتحدى، سباحة في نهر، صيد سمكة من الماء الطامي.

- لا غموض في علاقات الحب المرعبة أيضًا: الرفاق، السجن، تأمل الزحام البشري، التمرد، الغضب للآخرين، الرغبة في ملازمة الأحلام البعيدة واختراق الحقائق المستحيلة، كتابات لأديب لم يدلك عليه أحد، تقلب حوادث التاريخ، كره الخيانة واحتقار الخونة.

- هل هناك غموض في الإحساس بكل ذلك.

- المشكلة أن الأعمار محدودة، ولا يستطيع تحقيق الحلم إلا من حلم به.

- أكثر الفنانين إحساسًا بالظلم في بلادنا هم الرسامون والنحاتون والمثالثون، مع أنهم الأبناء الشرعيون لأجدادنا الفراعنة، الذين علّموا الكون كيف ينشق الحجر ليصعد منه الإنسان.

- مصر الرائعة الشهيدة التي لم يكتب أحد -بعد- تاريخها المعاصر.

- تتطاير تواريخنا في الريح ورقة بعد ورقة، وتنهار آثارنا -التي تدل علينا- أثرًا في أعقاب أثر، تفقد وجوهنا تضاريسها ملمحًا بعد ملمح، عصارة أيام العشق، دلائل الأعمار الفنية، روائح أيدي الأجداد المضمخة بالمسك، مع كل فقد يُقطع لنا جذر؛ لتصبح العلاقة بيننا وبين حقيقتنا كعلاقة الحذاء العصري بالأرض الأصلية.

- حين دُقت طبول النصر وارتفع صوت الأفراح، وأشعلت القناديل لم
ندفع ثمن الزيت، لم نتذكر دماء من غمسنا في دمائهم فتائل العُرس
المضيء، أطلقنا عليهم تلك التسمية الانتهازية مكشوفة التضاريس:
الشهداء، ومضينا لأحوالنا، لم نلتفت إلى أبنائهم أو أزواجهم أو آبائهم،
لم نرد الصنيع بصنيع.

- هكذا ابتلعت مصر اليعموم بردًا وسلامًا وانصرفت إلى توزيع تركة
الدماء، وانتقلت فكرة الوطن الواحد ليصبح لكل منا وطنه.

- يوضع الفاسدون في أهم المواقع وكأنهم اختيروا بعناية ليخرجوا
أحشاء مصر، سرقوا وحكموا وبُرئوا أو وقعت عليهم أحكام صغيرة،
وها هم يمشون كالطواويس تيهًا، ترفعهم على أكتافها الثروات التي
نُهبت والمكاسب التي ما كانت لتتاح لهم لو لم يخرجوا على المألوف.
- أريد أن أستدين من بنوك الدولة -حبيبتى- مبلغًا صغيرًا من المال،
فقط عدة ملايين دون ضمان مثل الكثيرين؛ ذلك لأنني قررت أن
أضرب المبلغ في جيبي وأغادر هذا البلد مثل من غادروا، ولا بد أن
تتحقق هذه المغادرة بأقل مغامرة.

- نهاجم الفساد كثيرًا دون أن نتوصل إلى توصيف حقيقي للفساد،
أو تعريف محدد يجعلنا -والدولة- نتكلم لغة واحدة، ويفهم أحدنا
الآخر حين نتحدث عن الفساد!!

- المسافة بين القول والفعل، الادّعاء والحقيقة، هو ما نطلق عليه «فساد».
- الفساد حقيقة أخلاقية واجتماعية وسياسية وإدارية؛ بل وأحيانًا
تتخذ صورًا دينية، الخروج من كل قوالب المكتوب على الأوراق للدائر

على أرض الحقيقة يشكل فسادًا، لا أظن أن ثمة أملًا أو سبيلًا لإيقافه
مهما خلصت النوايا ومهما نظفت يد الدولة، إذ إن هناك دولة فوق
ودولة تحت!!

- في هذا العصر الفاسد لا تصبح الحكومات حكوماتٍ بغير فساد.
- راحت رجال العز والهيبة، وجات رجال لا تستحي العيبة «بكائية
صعيدية».

- إننا نستورد الآن من الرغبة إلى عجينة الطعمية، وهذا لا يليق
بشعب قامت شهرة استمرار حياته على اعتماده على الفول والطعمية
منهجًا ورؤية وهدفًا!

- لقد تمكّن منا الكذب حتى ليستحيل علينا نزعهِ إلّا بطينة القلب
وتمزيق الأغشية وتمزيع الأوردة وتسييل الدماء.

- من الذي سلّحنا بثقافة القذارة ليجعل منها أكثر خصالنا أصالة.
- تمامًا كما انفتح «خرم» الأوزون واتسع في سنيننا هذه، حدث
«خرم» كبير في الستينيات (من القرن الـ٢٠) اسمه «خرم الأحلام».

- ويا لها من فترة تلك الستينات، كانت مؤخراتنا مكشوفة -لا
شك- انكشافًا جماعيًا؛ لأننا -وفي ليلة واحدة تقريبًا، وفي كل أنحاء
العالم تقريبًا- حلمنا جميعًا لفقراء العالم بأسرة واحدة ولقمة واحدة
وشمس واحدة، ونشيد واحد وغد واحد.

- كثيرًا ما تطل عليّ «فاطنة قنديل» من قبرها تذكّرني بأنها نبّهتني
منذ الصغر أن «العبرة بالخواتيم»، ثم تدعو لي قبل أن تنصرف إلى
رقدها: «اللهم أحسن ختامه».

- معجزة القرن الأمريكي حققتها الولايات المتحدة -جداً في الشر-
بمساعدة الحلفاء والعملاء. الحرب العالمية كسبتها أمريكا دون أن
تغادر «مطرحها»، ودون أن تفقد في الحرب جندياً واحداً.

- أحب أكل بيتي الذي غالباً ما أطهوه بنفسي؛ فزوجتي أرق من أن
أدفع بها لتقوم بهذه المهمة اليدوية الشاقة؛ إذ أنا لست في حاجة إلى
أن أتناول وجباتي خارج الدار.

- الدعوات من السفارة الأمريكية وباسم السفير الأمريكي نفسه،
دعوة عشاء للعبد لله ابن الشيخ الأبنودي والمرأة الأمية فاطمة
قنديل.

- قلت: لابد أنهم أخطأوا في الاسم والعنوان، فأنا لا أدعو للعشاء
في منزلي إلا صفوة الأحباب، وأمريكا المبجلة لم تترك لنا «خرم إبرة»
ننفذ منه إلى حبها.

- ما إن تجاهلت الدعوة حتى لحقت بها دعوة أخرى -طبق
الأصل- تحمل نفس العنوان -بالإنجليزية طبعاً- (للقاء رموز الثقافة
المصرية) يسر.. إلخ.. حتى وجدت نفسي أتساءل: وهل أنا من هذه
الرموز؟ متى وأين؟ أنا رجل من عامة الناس يتوجه إلى عامة الناس
ببعض الكلمات.

- إن أمريكا تمكّن لأعدائنا من أرضنا، تحاصرنا في مصر والعالم
العربي راغبة في إعادة صياغتنا، مع ما يتماشى مع مصالحها بصفقتها
حاكم العالم الأوحده، تحاول شق صف أمتنا والتفرقة بين مسيحيينا
ومسلمينا، واستغلال أوضاعنا الاقتصادية أسوأ استغلال، وأنا ضد كل

ذلك؛ أي أنني ضد أمريكا، فماذا يريد منّي سفيرها؟ أن «يتوّبني»؟
أن يجعلني أكتشف أن كل ذلك إنما هو في مصلحة أهلي الفقراء وفي
مصلحة مصر المجاهدة؟ أم أنه..

- أيها الإخوة المواطنون الذين أهدوا أسماءنا للسفارة الأمريكية،
مرة أخرى أردد: أنا مواطن مصري صالح، ما زالت آثار طين الصعيد
القديمة عالقة بأقدامي المشققة، ليس لدي ما أرفعه للسفير الأمريكي،
ولا أجيد السماع إلا للفلاحين أمثالي.

- العرب مخترعو ومقدسو الثبات، ولا يفزعهم سوى التغيير.

- الزمن يمضي لا يفهمه إلا النابهون أصحاب القضية، من أجل
هذا يتقدم أعداؤنا كل يوم بلا ضجيج، ونتقهقر نحن ونفرط ونبيع
ونُهدي، حتى ليكاد الوطن أن يمر من تحت بوابة القرن الجديد
هيكلاً عظمياً، وقد نبت في رأسه «قرن جديد».

- ننظر في الصراع العربي الإسرائيلي على أننا نصارع قوة، وكان يجب
منذ البداية أن ندرك أننا نصارع عقلاً.

- كان البيروتيون يشفقون عليّ من قلة الفنادق وتواضعها، لم يعرفوا
أني شاركت عم إبراهيم أبو العيون «حجرته» (أثناء حرب الاستنزاف)
ليلات طوال، لم تكن البراغيث ولا الناموس تمكّني من اختطاف لحظات
نوم إلى حين تضحل الذاكرة ويهمد الجسد، وتكف أصوات الاشتباكات
والانفجارات، لم يعرفوا أن علاقتي بالفنادق حديثة جداً وقليلة جداً.

- حكيت لأصدقائي من أهل الجنوب اللبناني عن تلك الليلة التي
حصرتنا فيها دانات المصريين والإسرائيليين، وعن ذبح النخيل والأشجار

وتهدم الجدران فوق خندقنا البدائي الفقير ورؤيتي الموت رأي العين.
- حدثهم عن «ولاد الأرض»، وعن الكابتن غزالي، وأغنياته التي كانت
تجوب أنحاء مصر، عن الشهداء ولم أشلائهم على عربات الكارو، بينما
راديو العاصمة يذيع «سواح»، تمامًا كما يحدث هناك، وكيف كان
أهل السويس القليلون يتندرون على أهل العاصمة ويقولون عنهم
«الإخوة في القطر الشقيق القاهرة»!!

- قالت زوجتي مشيرة إلى البحر: يبدو أن هذا الشاطئ جيد. قال
«علي»: كان هذا الشاطئ رائعًا فعلًا؛ بل من أجمل شواطئ لبنان،
ولكن الإسرائيليين سرقوه!

- اعتبرته تعبيرًا شعريًا رمزيًا أو أنهم في الاجتياح سرقوا أعمدة الرخام
وخشب المنشآت، كما يفعلون دائمًا.
- سألته: كيف سرقوه؟

قال بغضب هادئ: سرقوه، سرقوا رماله، استطاعوا شطف رمال
الشاطئ ونقلها في السفن إلى إسرائيل.
- قلت متعجبًا: فعلًا في السفن؟

قال: في السفن واللواري وبكل الطرق. كان رمل هذا الشاطئ نادرًا،
ولأنهم يهود يفهمون حتى في نوعية الرمال وقيمة التراب؛ سرقوا
أجمل رمال لأجمل شاطئ بلبنان.

- حين وجدني صامتًا متحيرًا نظر نحوي ربما للمرة الأولى منذ تحركت
بنا السيارة من أمام الفندق ببيروت، ثم قال وقد علت نبراته: ليست
بالمرة الأولى التي تسرق فيها التراب، ماذا عن سرقة التربة الزراعية

من أرض الجنوب؟ ألم تسمع عن ذلك؟ سرقة التربة اللبنانية الصالحة
للزراعة من «سهل الدردارة»، و «حرج الخيام» في «مرجعيون»، ونقلها
إلى المنطقة الزراعية التي استحدثتها إسرائيل خلف الحدود الدولية
قبالة «كفر كلا» و «مستعمرة المظلة»؟!

- نعم يا أستاذ إنهم يسرقون التراب، فهل تظن أن من يسرق التراب
يمكن أن يعيد لنا الأرض؟ لا بد من استردادها باليد والسلاح والدم والشهيد.
- إن حربهم ضدنا لم تتوقف لحظة؛ بالمخدرات حينًا، وبالإيدز حينًا،
وبالسموم التي تعبر إلينا في البذور والأسمدة والمبيدات أحيانًا.

- أقول لنفسي أحيانًا: لماذا لا تعلق لافتة على ظهرك تتدلى من
خلف عنقك مكتوب عليها: «احذر.. وقوف متكرر».

- هذه هي حال الشَّعر معي؛ يتوقف بلا مبرر، ويعود بلا مبرر.
- علاقتي بالشعر كعلاقتي بأمي؛ تتذكرني في موتها البعيد فتأتيني
لأتذكرها.

- الضمير هو لحظات تذكّر عميقة قادمة من تلقاء نفسها، تملأ
الوحدة وتضيء الغرفة وتحيي الذاكرة ليسطع الشعر.

- ليس أمتع من لحظات الإبداع للمبدع؛ متعة المتع، حين يطل
عليك من حلق الباب ويهمس: «مساء الخير أيها الشاعر»، ويجلس
لتستقبله.

حكمة الأبنودي (٢)

- إحنا لا نقدر نكون صادقين صدق السيرة الذاتية، ولا الجمهور هيقبل منك بعدما رسملك صورة معينة، إنك تبان أمامه بصورتك الحقيقية، على طول يسقطك.
- المجتمع الآن تغير، ما حدش هيسمحلك إنك تكون شريف قوي.. تبقى شريف على قدر الإمكان.
- الذين يهاجمونني ويحاولون النيل مني، أؤكد لهم أنه يوجد في مصر رجل لا يُزَقُّ اسمه عبدالرحمن الأبنودي.
- حاولت هذه المدينة أن تلوي ذراعي وتقودني إلى حيث تريد، استطعت بإرادة قوية واقتناع كامل أن أسترد ذراعي عفية صحيحة.
- أنا في الحقيقة مدين لكل سنوات العوز والشقاء الأولى.
- الشيخ الأبنودي أرسل لنا أربعين جنيهاً؛ لأشتري كتباً وأعمل مرتبة وأقعد، رحت اشتريت سور الأzbekية كله، الكتاب بقرش وقرشين، وجبت صندوق كبير من بتاع «باتا» بتاع «الجزم» ومليته كتباً وشحنته على قنا وشحنت نفسي وراه، وهذه المكتبة مسئولة عن أي مثقف خرج من قنا بعد ذلك؛ لأنني تركت هذه المكتبة للآخرين لاستعمالها.

- سيد خميس لولاه لم تكن القاهرة تعرفني، لست وحدي، ولكن معظم جيل الستينيات، وهو الذي عمل دار النشر التي طبعت «رباعيات» صلاح جاهين، وما كناش لاقين حد يطبعها، و«الأرض والعيال» للأبنودي، و«صياد وجنّيات» سيد حجاب، وكان دليلنا ومرشدنا في هذه المدينة، وله أفضال غير عادية على الجيل وأنا أولهم.

- كان سيد خميس بيصرف علينا، كان يروح يشحن عربية قوطة من بلده «برقاش»، ويطلع بيها مع الفجر لسوق الخضار في روض الفرج ويبيعها، ثم يأتي ونحن -أصدقاءه عز الدين نجيب وخيري شلبي وأنا وآخرون - لا زلنا نائمين، يصحّينا، نطلع نشرب الشاي الفريسكا على المقاهي، ويفطّرنا ويغدينا ويعشّينا، ويشترى لنا الكتب. كان راجل. ونعم الدور الذي لعبه في حياتنا، لهذا سيد خميس دائماً في عيني، ولولا كسله الأصيل لكان من أهم نقادنا.

- لابد أن تحب الشيء، ولولا عشقي للشُّعر لما كتبتّه، ولولا عشقي للغناء ما كتبت الأغاني، كل إنسان يعشق حاجة، وعشقه لها هو اللي يخليه يبقى في الصف الأول. على قدر عشقك تقرأ لكي تكمل ما ينقصك، وعلى قدر عشقك لتراثك تضيع ٢٢ سنة من أحلى سنوات العمر في جمع «إلياذة العرب» الخالدة: «السيرة الهلالية». هل أنا كنت مجنوناً مثلاً؟ لا. إنما هذا عشق؛ لأن هذه ملحمة.. الإلياذة والأوديسا لا تصلان إلى فصل في السيرة الهلالية.

- حبي للسيرة الهلالية ساعدني في اكتشاف مرة أخرى للصعيد،

خصوصًا أن ارتباطي بهذا العمل قد بدأ بعدما انخرطت في المدينة،
وبعدما ربنا وفّقني في هذه المهمة، فوجئت بجماعة من الأكاديميين
الذين أرادوا السطو على هذا العمل، لدرجة أنهم طلبوا مني ما
جمعته مقابل منحي درجة الدكتوراه.. وطبعًا رفضت.

- كنت قد غادرت الصعيد عام ١٩٦٢، وحين عدت إليه اكتشفت
أنني لم أكن أعرفه.

- ثلاثة يكرهها الرجل الصعيدي: الكذب، الجذب، العقم.

- شنب الرجل الصعيدي ينحني أمام المرأة في شئون الأسرة.

- العلاقة بيني وبين أمي تخرق أشعاري جميعا جيئة وذهابًا،
والتي هي ملهمتي ومعلمي الأول التي أرضعتني الأشعار والطقوس
والأغنيات والتراث والفلسفة.

- لأمي مَثَلٌ كانت تقول به: «القحبة ما تتوب، والميّه العِكره ما
تروق».

- تقعد تربّي وتكبر بناتك، وفي الآخر يبجي الغراب ويخطفهم.

- بكيت كثير.. بكيت على أمي وعلى أبي عندما مات، وبكيت من
القهر، أحيانًا تشعر إنك مقهور فتدمع.

- كنت وزملائي أدباء الستينات قد دخلنا جمعية شيوعية تدعى
«وحدة الشيوعيين» كانت هي التي قادتني إلى السجن لمدة ٦ أشهر
قضيتها في مزرعة طرة، ثم استقلنا من هذه الجمعية عندما اكتشفنا
أن المسئول فيها يبلغ عنا البوليس.

- السجن أنضج تجربتي الشعرية. أنا أكثر واحد فرح بتجربة السجن،

تعلمت جدًا من تجربة السجن؛ لأن كل القناعات الهايفة وقعت لوحدها، كنا نرسم الحرية حمامة منطلقة من وراء القضبان، لكن بعد تجربة السجن طلعت الحرية حاجة ثانية خالص؛ إنك تكون في الحمام الصبح وبتقرا الجرنال، أو بتدخن سيجارة، أو تطلع سلام بيتك وتقف تنهج أمام الباب، الحنين لهذه الأشياء هي دي الحرية، إنما السجن نفسه تجربة عظيمة الشأن؛ لأن العالم كله يتلخص في عنبر أو في زنزانة، لكن تجربة الزنزانة قاسية جدًا لأن الزمن فيها لا يتحرك.

- عبدالحليم إنسان بمعنى الكلمة، عرفت هذا الفنان العظيم ١٩٦٥، ثم سرعان ما دخلت الاعتقال عام ١٩٦٦، ولم يهرب من صداقتي أو يخاف كما فعل البعض، وكان يرسل لي السجائر ويتوصل إلى الأجهزة والمسئولين أن يسمحوا له بذلك.. بصحيح رجل جدع.

- عبدالحليم يشبهني كثيرًا في رحلتي، وهذا كلام أول مرة أذكره؛ فقد كنت أنا وهو على جانب كبير من الحساسية، هو بسبب اليتيم والفقر، وأنا بسبب ابتعاد الشيخ والدي عن والدي؛ فقد كان هو في قنا ونحن في أبنود، فحين يكون كل الأولاد من حولهم آبائهم ويكون الطفل محروما من الأب ولا حوار بينهما يتكوّن لديه هذا العالم الخاص، عبدالحليم كان لديه عالمه الخاص، فالغربة أحيانًا تصيب المرء بالانفراد بالذات، وفيما بعد تلتفت إلى أشياء لم يلتفت إليها الآخرون، فالتفت هو إلى الموسيقى، في الوقت الذي التفت أنا فيه إلى غناء الفلاحين من حولي، وتلك النصوص الرائعة التي يغنيها الفلاحون وراء السواقي وتحت الشواذيف، إلى آخره، مع الوقت تهديه خطاه إلى أن يدخل

معهد الموسيقى بالمصادفة، وأظّل أنا أيضًا على حالي حتى يحدث العدوان الثلاثي ١٩٥٦ فأجدي أكتب كلامًا، وأقف أقوله وسط الناس، وأجد استحسانًا كبيرًا فأستمر، وأذكر أن والدي قام بتمزيق أول ديوان لي لأنه ليس شعرًا بالفصحى، وكسرت عمود الشُّعر، واعتبر أبي هذا جريمة، أيضًا حلّيم ضربوه بالطماطم وأنزلوه من على المسرح لأنه لم يغن لعبد الوهاب، وكان يريد أن يغني لذاته، مع الوقت بدأ حلّيم في وضع أقدامه على السلم، عندما تأتي له أية فرصة في الإذاعة أو كذا، نفس الشيء عندي، فقد اتجهت لدراسة الشعر العربي، وتعلمت في مدرسة وذهبت إلى الجامعة وبدأت في كتابة شعر حقيقي وتركت الفصحى، واتجهت إلى الكتابة بلغة أهالي قريتي وأحبابي، ثم فجأة يأتي النجاح وبعده يبدأ الناس في ترديد اسمك، وهكذا عبد الحلّيم، ولذلك كان من الطبيعي أنه عندما أذهب إلى منزله أجد ديواني الأول «الأرض والعيال» بجوار سريريه، ومخططًا بقلمه تحت أبيات أنا اعتبرها من أفضل أبيات شعري على الإطلاق، ومن هنا كانت البداية بيني وبين حلّيم، ثم اختلفنا بطريقة نظيفة فيما بعد، وكل واحد اتجه لطريق وسعى إليه، بعد حرب ١٩٧٣ أعادني من لندن لأكتب له «صباح الخير يا سينا»، وودّعني في نهاية الغنوة وقال لي: «أنا آسف يا عبدالرحمن إني غنتها بصوت ضعيف لأنني مريض»، فقلت له: «أرجوك أن تغني بهذه الطريقة دومًا لأن (صباح الخير يا سينا) من أكثر الأغنيات العاطفية وكأننا لا نغني للوطن»، وودّعني، وكان ذلك آخر لقاء.

- لاشك أن موقفي المعارض قد أثار أحقاد الآخرين الذين بدأوا يتساءلون:

كيف أعارض وأنا أنال كل هذا التكريم سواء بخصوص جائزة الدولة التقديرية، أو جائزة مبارك، وكنت أرد عليهم بقولي: هذه الجوائز لا تعطىها الحكومة بل يعطيها المثقفون، وبناء على جهدي وتفردى في الشعر.

- في الشعر أنت والورق والقلم وجهًا لوجه، لا وسيط، ولكنك في الأغنية عضو من المجموعة التي تقدمها.

- الشعر ليس شيئًا عفويًا وبسيطًا كما يعتقد الناس، الشعر عمليات حسابية معقدة تتم داخل الشاعر الحقيقي الأصيل.

- رأيت أن كتابتي للأغنية هي سبيلي للإنفاق على رحلتي الأدبية ورحلة الشعر.

- حسين كمال أرسل لي «شيء من الخوف» السبت كي أكتب الأغاني، وأسلمها الأربعاء، أنا قلت إن هذا الفيلم ممكن يبقى فيلم ما حصلش، وقفلت على نفسي الباب، ولا أخرج إلا للتواليت أو آكل لقمة، وعلى ليل الثلاثاء كنت خلّصت، وكان عندي فرصة للمراجعة يوم الأربعاء، وحذفت مشاهد وأضفت مشاهد، ورحت لحسين كمال وقرأت له الفيلم من أوله إلى آخره، لم ينطق، وبعدما خلّصت قام يقبلني.

- هاتفني محمود درويش قائلاً: «أفسدت عليّ الدنيا يا لعين، لم يفسد عليّ أحد قصيدة في حياتي».

قلت له: ماذا حدث؟ قال: كنت أكتب قصيدة عن أمي، قصيدة (أحن إلى خبز أمي)، ووجدتك استنفدت كل ما يقال في قصيدة (يامنة) ولا أستطيع تجاهل ما كتبته، هذا ما كنت أريد قوله.

قلت: لقد كتبتها في عشر دقائق على تراييزة المطبخ حين علمت
ب وفاة أمي.

- أنا طول عمري مهموم بالوطن والأدب الشعبي، وأؤمن بأنه
لا قيمة للأدب إذا لم يصل للناس، أحب أن يقرأ قصائدي المثقفون
والحفاة العراة.

- لعب الحظ دوره الكبير حين نشر لي الشاعر الراحل الكبير صلاح
جاهين أولى قصائدي في مجلة «صباح الخير»، وفي باب كان يحرره
تحت عنوان «شاعر أعجبنى»، وقد أحسست أنني قد وضعت قدمي
فوق مشوار الشعر.

- إن صلاح جاهين هو أول من «رَصَّ» طوبًا وبنى بالأسمنت في ببيان
شعر العامية، وهو شاعر نادر أن تجود الأيام بمثله.

- فؤاد حداد هو الرائد الأول لحركة الشعر العامي، وشعره دفاع
ضد كل من يتهموننا بأننا نقطع جذورنا بالتراث العربي، وأنا لو
بيدي لأقمت لفؤاد حداد تمثالاً.

- نجيب محفوظ علّمني الجدّيّة والالتزام والصدق والتواضع.

- في عام ١٩٦٤ أصدرت ديواني الأول «الأرض والعيال» فأحدث ضجة لا
مثيل لها، وبالتالي بدأوا ينظرون إليّ كشاعر يستبشرون فيه خيراً.

- لا أكتب بقرار لأني تحويشة الناس الغلابة.

- رأسمالي الحقيقي هو إعجاب الآخرين بما أكتبه وأخرجه من دواوين.

- لا أفضل أن تكون لي مدرسة؛ لأن لكل منا خصوصيته وموهبته
التي منحها الله له.

- حب الناس هو ثروتي الحقيقية، وما زلتُ أفخر بأن الناس قد لا يعرفون العم نجيب محفوظ وعظمته، ويوسف إدريس وأعماله، وربما جيلي بأكمله، ولكن أنا يعرفني الحفاة والعراة.

- «يا خال» أجمل لقب حصلت عليه في حياتي، وأجمل ما خرجت به من الدنيا.

- نهال.. أقرأ عليها أولًا كل إنتاجي الجديد، هي أول قارئ وأول ناقد.

- عبدالناصر له مجدافان عبر بهما إلى أهدافه، هما الفقراء والشباب.

- حين علم عبدالفتاح السيسي بوجودي في القاهرة طلب رؤيتي (أثناء حملته الانتخابية) وذهبت إليه في طريق عودتي لبيتي. قلت له: «مصر لن تسترد عافيتها إلا بالفقراء والشباب، وهما في أسوأ حال».

- الفقراء لم يأخذوا حقهم حتى الآن، ولو أصلحنا شأنهم لانتظم المجتمع كالساعة.

- نحن لسنا أمة فقيرة.. ناسنا فقط هم الفقراء.

- ثورة ٣٠ يونيو أفسدت مخطط الإخوان لبيع مصر على أرصفة العالم.

- الإخوان أهل دماء ولديهم غباء إنساني وغشم روحي.

- مقام مصر أعلى من مقام أي حاكم.

- الأدب والفن هما رمز للحق والخير والجمال، وهذا يتطلب أن يكون انتماء الفنان نفسه للحق قويًا بل ومطلقًا.

- القضية ليست قضية نصح نوح لابنه بركوب الفلك، وإنما هي قضية اختيار ذاتي؛ فالحلال بيّن والحرام بيّن.

- الواقع الاقتصادي نهش منك أصدقاءك وقدرتهم على الحب
وقدرتهم على العطاء لك.

- المجتمع انقلب إلى مجتمع استهلاكي في ثوانٍ، مع عدم الثقافة، مع
عدم الوعي، مع فقدان الهدف القومي.

- الناس انفرط عقدها، وتحللت قيمًا وأخلاقًا.

- لا يا سادة، لمصر حراسها، وللحركة الثقافية المصرية عيونها، وإذا
كانت لديكم نواياكم لإضعاف مصر وتغليب الباطل على الحق؛ فإن
لدينا نوايانا للدفاع عنها، ولن نترككم تتزعمون عصابات البلطجة
والنصب الأدبي وقطع الطريق على الموهوبين.

- قطعنا كل صلتنا بالماضي، لم نطوّر الموروث ولم نزاوج بين الأمس
واليوم؛ ففقدنا الحكمة والرائحة القديمة.

- ابن عروس: ياللي تعيط قدام الباب، عيط.. وكون فاهم ما يفسد
بين الأحباب، غير النساء.. والدراهم.

- أحبوا أحياءنا كي نصدق حزنكم على أمواتنا.

- النيل وهبنا كل شيء، وبالتفاته يسيرة نحوه نكتشف ماذا فعلنا به؟!

- نطل نطارد الزمن، ونكتشف - في النهاية - أننا لم نبرح أرصفة
الاستقبال والوداع.

- الحاج الضوّي الكبير: أنا اللي بانصح الناس.. لكن عاوز ميتين ناصح.

- أجمل البلدان هي تلك التي لا تصادفك فيها الغربة.

- فلا مصر ستتخلي عن دورها، ولا الآخرون سيتخلصون من
إحساسهم بتفوقها الإنساني.

- الحرب في بلدنا تنسب للرؤساء وليس للشهداء.
- إذ لسنا جميعًا «أولاد حلال».
- بالحوار وليس بالقوانين يعود الصفا لقلوب المواطنين.
- الصمت عن الحق جريمة الجرائم.
- الحاكم المُلهم هو الذي يفرحه صخب شعبه وصيحاته، ويستريب فيه حين يصمت.
- متى سيعرف كلُّ منا مكانه الحقيقي في إمكانية التقدّم.
- لقد أدرك المصري القديم -جدنا- أن الحياة دنيا ودين.
- هل يمكن -فعلًا- في المستقبل أن يصبح الإنسان كائنًا سياسيًا في بلادنا.
- صارت بلادنا حقل التجارب شبه الوحيد لأسلحتهم الجديدة بالغة الصلف والتكبر.
- حين أنظر إلى كل ناتج النفاق الاجتماعي لا أرى سوى تلك العناصر التي دفعنا بها إلى مقدمة تجمعاتنا دون مصر.
- في الدول المتخلفة يتقدم الأفاقون الصفوف.
- اكتشاف الطرق النبيلة لتحمل المعاناة يشي بجمال الصبر.
- يا سيادة الأمير أو الكبير أو الوزير أو المدير أو الخفير، مادمت قابلاً على كرسي السلطة فأنا مسئوليتك.
- كان الغناء وجه الفقراء! راح زمان وجاء زمان.
- كنا آخر جيل عاش على القصص والإبداع الذي ضاع.
- خدمة الوطن شيء، والبحث عن الفرقة للترويج والتسويق شيء آخر.

- الشعب المصري يتناقض طبيعة وطبعًا مع الإسرائيليين.
- كنا نغني الوطن من قلوبنا، ولم نكن ننتظر من الوطن أن يدفع ثمن حبنا له.
- من الذي قتل الشعر؟ النابهون أم نحن، أهل التخلف والوطنية؟
- ترحل عيوننا إلى القدس كل يوم في خزي الصمت وقد سقطت القصيدة -ورقة التوت- عن عورة الأوطان والأهل.
- الصديق نشار الدنيا.
- الشاعر الصادق مخلوق ملعون مريب.
- أخشى أنني لو كتبت قصيدة حقيقية سوف أؤرق الأمة وأزعجها.
- لا يليق الحقد والحسد إلا بأقزام وُلدوا صغارًا و يموتون صغارًا.
- إنَّ من حقِّ الأبناء والزوجات أن يرثوا المال؛ فهذا حقهم، وأن يقيموا الذكرى السنوية في بيوتهم، وأن يفخروا بأبائهم وأزواجهم وأقاربهم، لكن الاسم والقيمة الفنية والتاريخ.. كلها ملك لأهلها من الغرباء.
- وصيَّتي الوحيدة لآل بيتي: ألا يدخلوا بعد موتي معركة مع أحد، ليركوا أعمالهم تنال عقابها أو ثوابها وتدافع عن وجودها بقيمتها الحقيقية، هي التي تحدد وتقرر أن تعيش أو تموت.

مراجع المقدمة

- ١- مجلة «الإذاعة والتلفزيون» عدد ٤١٨٠ - ٢٥/٤/٢٠١٥.
- ٢- مجلة «الهلal» عدد يونيو ٢٠٠٨.
- ٣- جريدة «الميدان» ٢٥/٤/٢٠٠٠.
- ٤- جريدة «الأسبوع» ٤/١/١٩٩٩.
- ٥- مجلة «نصف الدنيا» من حوار عمرو عبدالسميع مع عبدالرحمن الأبنودي.
- ٦، ٧ - السابق.
- ٨ - حوار الأبنودي لمحمود الشربيني - «الوفد» ١٨/٤/١٩٩١.
- ٩- الأبنودي لحنفي المحلاوي - «الأخبار» ٢٦/٨/٢٠١٠.
- ١٠، ١١- «نصف الدنيا»، السابق.
- (*) مجلة «الإذاعة والتلفزيون» حوار عفاف علي- ٢٢/٥/٢٠١٠.
- ١٢، ١٣ - «نصف الدنيا»- السابق.
- ١٣ - «الإذاعة» -السابق.
- ١٤- «الأسبوع»- السابق.
- ١٥- «النصف الآخر» ملحق «نصف الدنيا» - حوار أسامة الرحيمي مع الأبنودي.
- ١٦- «الوفد»- السابق.
- ١٧، ١٨، ١٩ - «الهلal»- السابق.
- ٢٠، ٢١ - «الإذاعة والتلفزيون» - خيري شلبي- ١٥/١٠/١٩٩٤.

- ٢٢- «الوفد»- السابق.
- ٢٣- «النصف الآخر»- السابق.
- ٢٤- «الوفد»- السابق.
- ٢٥- «النصف الآخر»- السابق.
- ٢٦- «الأخبار»- السابق.
- ٢٧- «الأخبار»- حنفي المحلاوي- ٢٥/٨/٢٠١٠.
- ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١- «الوفد»- السابق.
- ٣١- «الهلال»- السابق.
- ٣٢- «الوفد»- السابق.
- ٣٣- «النصف الآخر»- السابق.
- ٣٤- مجلة «الإذاعة»- حوار سماح جاه الرسول مع الأبنودي-
٢٠١٤/٦/١٥.
- ٣٥- «الهلال»- السابق.
- ٣٦، ٣٧، ٣٨- السابق.

سيرة ذاتية للكاتب



إبراهيم عبد العزيز

صحفي في مجلة الإذاعة والتلفزيون لمدة ٣٤ سنة

باحث أدبي، له عدد من المؤلفات :

- ١- رحلة في عقول مصرية - سلسلة تاريخ المصريين - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩١.
- ٢- رسائل خاصة جدا - كتاب اليوم ١٩٩٢.
- ٣- الملف الشخصي لتوفيق الحكيم - دار المعارف ١٩٩٢.
- ٤- يحيى حقي .. ذكريات مطوية - مشترك مع نهى حقي - دار سعاد الصباح ١٩٩٣- طبعة ثانية بهيئة الكتاب ٢٠١٢
- ٥- رسائل يحيى حقي إلى ابنته - مشترك مع نهى حقي- هيئة الكتاب ١٩٩٦ - طبعة ثانية بمكتبة الأسرة ٢٠٠١.
- ٦- أوراق مجهولة للدكتور طه حسين - دار المعارف ١٩٩٧- طبعه ثانية بدار نفرو ٢٠٠٩ باسم « أحاديث رمضان».
- ٧- أيام العمر... رسائل خاصة بين طه حسين وتوفيق الحكيم - هيئة الكتاب ١٩٩٧ - طبعة ثانية بمكتبة الأسرة ٢٠٠٢.
- ٨- أشعار توفيق الحكيم - دار قباء ١٩٩٨- طبعة ثانية بعنوان آخر : «ديوان توفيق الحكيم» نفرو للنشر والتوزيع ٢٠٠٧.
- ٩- رسائل طه حسين - دار ميريت ١٩٩٩- طبعة ثانية بمكتبة الأسرة ٢٠٠٠.
- ١٠- في براح الفكر.. كتاب لم ينشر للسندباد د. حسين فوزي- المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠.

١١- أساتذتي .. لنجيب محفوظ - ميريت ٢٠٠٢- طبعة ثانية بهيئة قصور الثقافة ٢٠١٨

١٢- تراث طه حسين .. المقالات الإسلامية والأدبية - دار الكتب والوثائق القومية ٢٠٠٢.

١٣- رصاصة في قلبي.. لتوفيق الحكيم.. مسرحية لم تنشر - دار الشروق ٢٠٠٥.

١٤- أنا نجيب محفوظ .. سيرة ذاتية - المجلس القومي للشباب- الإدارة المركزية للطلائع ٢٠٠٥ - طبعة مختصرة - الطبعة الكاملة بدار نفرو ٢٠٠٦- طبعة أخرى بمكتبة الأسرة ٢٠١٢

١٥- صبرى العسكرى .. خمسون عاما بين الأدب والمحاماة.. ألفين للثقافة والنشر ٢٠٠٦.

١٦- حافظ محمود .. أول عضو في نقابة الصحفيين يتذكر - ميريت ٢٠٠٧.

١٧- توفيق الحكيم ضاحكاً - هدية مجلة الإذاعة والتليفزيون عدد ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٧.

١٨- الديمقراطية .. كتاب لم ينشر لطه حسين - طبعة مختصرة- هدية مجلة الإذاعة والتليفزيون عدد ١٠ نوفمبر ٢٠٠٧- الطبعة الكاملة نفرو ٢٠٠٨- طبعة أخرى بمكتبة الأسرة

١٩- سعد زغلول .. حكاية شعب - مجلة الإذاعة والتليفزيون أبريل ٢٠٠٩.

٢٠- رسائل أنيس منصور - دار نفرو ٢٠٠٩.

٢١- مصر في مرآتي .. لطه حسين - الحضارة للنشر ٢٠٠٩.

٢٢- الحب في حياة زعماء مصر - دار الحضارة للنشر ٢٠١٢.

٢٣- مذكرات عبد القادر حاتم..رئيس حكومة حرب أكتوبر-الهيئة العامة لقصور الثقافة-٢٠١٦

٢٤- ليالى نجيب محفوظ فى شبرد-دار نشر بتانة-٢٠١٧

٢٥- مذكرات عبد الرحمن الأبنودى..فى طفولته وصباه-بتانة-٢٠١٨



ورغم أن ما أملاه على الأبنودي من مذكراته لم يغادر مرحلة الطفولة والصبا؛ فإن هذه الفترة -فترة الطفولة بالذات في أبنود- تعتبر الفترة الأهم في حياته، والتي كانت منبعًا لإبداعه وعنوانًا على مسيرته الفنية والإنسانية حتى رحيله، أو كما يقول: "مازال عالم الطفولة هو العالم الغني السخي الذي ألجأ إليه دائمًا حين تضيق بي التجارب، ثم إنه مازالت حتى الآن معظم مفردات الطفولة في أبنود أكتب بها، وهي التي أورثتني إياها وملأت بها حجري وجيبي، فأبنود هي تجربتي الثرية، هناك عرفت معاناة الفلاحين.. وتظل أبنود هي عمود الخيمة في تجربتي الشعرية والإنسانية".

